جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

أدبُ المَقَالة الجُغرافيَّة الرَّقْميَّة

(دراسةٌ في منجز عاطف معتمد في جغرافيَّة مصر)

إعداد

د/ محمد شمس كامل عُقاب

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مصر

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

أدبُ الـمَقَالة الجُـغرافيَّة الرَّقْميَّة
(دراسةٌ في منجز عاطف معتمد في جغرافيَّة مصر)

محمد شمس كامل عُقاب
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر.
البريد الإلكتروني: mohamed.shams@alexu.edu.eg

الملخص:

لم يعد يقتصر مفهوم النثر في عصرنا الحديث على الأنواع الأدبية الكلاسيكيَّة كالخطابة والكتابة الديوانية والمقالة؛ بل توسّع ليدخل فيه كل ما من شأنه أن يكون تعبيرًا جميلًا بغض النظر عن المضمون الذي يحتويه، كنماذج من النصوص التاريخية والمواعظ وبعض القطع الفلسفية وسوى هذا. على صعيد آخر تنوعت منصّات الكتابة في السنوات الأخيرة فلم تُمْسِ قاصرةً على الكتابة الورقيّة النمطيّة، بل تجاوزتها إلى الكتابة الإلكترونية الرقميَّة في مدونات مختلفة، أهمها وسائل التواصل الاجتماعي، التي اقتضتْ اختلافًا ملموسًا في الخصائص الشكلية والموضوعية عما كان في الكتابة الورقية؛ مما سنفصّل طرَفًا منه في النوع الأدبيّ الذي اخترناه لهذا البحث، وهو فنّ كتابة المقال في منصة الفيسبوك، استطاع الدكتور عاطف معتمد أستاذ الجغرافيا بجامعة القاهرة أن يصوغ مقالاتٍ كثيرةً متتابعة في فن الجغرافيا في صفحته بالفيسبوك، ولم يكن يعرضها بطريقة علميّة أكاديمية، بل بصورةٍ أدبية تستوفي الشروط النظرية لفنّ المقالة، إضافةً إلى وسائل التحديث الأخرى التي استدعتها المنصّة الحاملة لتلك المقالات؛ من تفاعل الجمهور المباشر بالتعليق أو إبداء المشاعر أو التصحيح والمراجعة، ومن وسائل العرض المساعدة التي أهمها الصورة الفوتوغرافية والخريطة، ما أثرى الفنّ الأدبي للمقالة عند هذا الكاتب، فكان حافزًا لنا لاختياره للمادة المدروسة، ينشر الدكتور عاطف معتمد مقالاته بغزارة، وقد اقتصرنا من ذلك على مقالاته التي تناولت جغرافية مصر على التحديد، وهي السواد الأعظم

من تلك المقالات، بلغ مجموع المقالات المدروسة في البحث لتلك السنة ٥٦ مقالة، فيما يربو على (٣٥٠٠٠) كلمة، يتكون هذا البحث من مقدمات ضروريّة نمطية، ثم ينقسم ثلاثة أقسامٍ كبيرة: قسم للمضامين، وقسم للتشكيل الفني، وقسمٍ ثالثٍ خصصنا به النص الموازي، ثم الخاتمة.

الكلمات المفتاحية: فن المقالة، أدب المقالة الجغرافية، المقالة الرقمية، عاطف معتمد، جغرافية مصر.

Literature of the digital geographical article
(A study on Atef Motamed's work on the geography of Egypt).

Mohammad Shams Kamel Uqab
Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Alexandria University, Egypt
Email: mohamed.shams@alexu.edu.eg

Abstract:
The concept of prose in our modern era is no longer limited to classic literary genres such as oratory, poetry writing, and the essay. Rather, it expanded to include everything that would be a beautiful expression regardless of the content it contains, such as examples of historical texts, sermons, some philosophical pieces, and so on. On the other hand, writing platforms have diversified in recent years, no longer being limited to typical paper writing, but rather going beyond it to digital electronic writing in various blogs, the most important of which is social media, which required a tangible difference in formal and objective characteristics from what was in paper writing. We will detail part of it in the literary genre we chose for this research, which is the art of writing articles on the Facebook platform, Dr. Atef Motamed, Professor of Geography at Cairo University, was able to formulate many successive articles on the art of geography on his Facebook page, and he did not present them in an academic, scientific manner, but rather in a literary manner that fulfilled the theoretical conditions for the art of the article, in addition to the other means of updating required by the platform carrying those articles. From the direct interaction of the audience by commenting, expressing feelings, or correcting and reviewing, and from the auxiliary means of presentation, the most important of which are the photograph and the map, what enriched the literary art of the article according to this writer, was an incentive for us to choose him for the material studied, Dr. Atef Motamed publishes his articles prolifically,

and we have limited this to his articles that specifically dealt with the geography of Egypt, which are the vast majority of those articles. The total number of articles studied in the research for that year was 56 articles, with more than 35,000 words, This research consists of necessary, typical introductions, then it is divided into three large sections: a section for the contents, a section for the artistic formation, a third section to which we devoted the parallel text, and then the conclusion.

Keywords: The Art Of The Article, The Literature Of The Geographical Article, The Digital Article, Atef Motamed, Geography Of Egypt.

مدخل:

توسّع مفهوم النثر في العصر الحديث فلم يعد يقتصر على الأنواع الأدبية الكلاسيكيَّة كالخطابة والكتابة الديوانية والمقالة؛ بل دعا بعض النقاد إلى أن يُدخل فيه كل ما من شأنه أن يكون تعبيرًا جميلًا بغض النظر عن المضمون الذي يحتويه، كنماذج من النصوص التاريخية والمواعظ وبعض القطع الفلسفية وسوى هذا(١).

على صعيدٍ آخر تنوعت منصّات الكتابة في السنوات الأخيرة فلم تُمْسِ قاصرةً على الكتابة الورقيّة النمطيّة، بل تجاوزتها إلى الكتابة الإلكترونية الرقميَّة في مدوَّنات مختلفة، أهمها وسائل التواصل الاجتماعي، التي اقتضتْ اختلافًا ملموسًا في الخصائص الشكلية والموضوعية عما كان في الكتابة الورقية؛ مما سنفصّل طرَفًا منه في النوع الأدبيّ الذي اخترناه لهذا البحث، وهو فنّ كتابة المقال في منصة الفيسبوك.

استطاع الدكتور عاطف معتمد أستاذ الجغرافيا بجامعة القاهرة أن يصوغ مقالاتٍ كثيرةً متتابعةً في فنّ الجغرافيا في صفحته بالفيسبوك ضمن كتاباتٍ أخرى مختلفة كالخواطر والفوائد وعروض الكتب والإذاعة عن المحتوى البصري الذي ينشره في اليوتيوب ونحو ذلك. وقد اعتنيتُ بمقالاته تلك –التي كان لها الغلبة على سواد منشوراته– على الخصوص.

لم يكن كاتبنا يعرض مقالاته بطريقة علميّة أكاديمية، بل بصورةٍ أدبية تستوفي الشروط النظرية لفنّ المقالة، إضافةً إلى وسائل التحديث الأخرى التي استدعتها المنصّة الحاملة لهذه المقالات؛ من تفاعل الجمهور المباشر بالتعليق

(١) من هؤلاء الدكتورة وداد القاضي، انظر مقدمة كتابها: مختارات من النثر العربي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١/١٤٠١هـ)، ثم النماذج التي اختارتها مصداقًا لهذا الرأي. ورأيها في هذه القضية جديرٌ بالقبول.

أو إبداء المشاعر أو التصحيح والمراجعة، ومن وسائل العرض المساعدة التي أهمها الصورة الفوتوغرافية والخريطة، ما أثرى الفنّ الأدبي للمقالة عند الكاتب، وكان حافزًا لنا لاختياره مادةً للبحث.

ينشر الدكتور عاطف معتمد مقالاته بغزارة في السنوات الأربع الأخيرة في صفحته تلك، وقد اقتصرنا من ذلك على مقالاته التي تناولت جغرافية مصر على التحديد، وهي السواد الأعظم من تلك المقالات. واخترنا مادةً للدراسة سنة ٢٠٢١م بما نشره فيها من مقالات أو أعاد نشره من سنوات سابقة[١]. وهذه العيّنة المختارة لتكون مادةً للدراسة عيِّنةٌ ضخمة تدلُّ على غيرها من المقالات الكثيرة (إذ ما زال كاتبها ينشر إلى الآن).

وقد بلغ مجموع المقالات المدروسة في البحث لتلك السنة ٥٦ مقالة، جمعتها عندي فربتْ على مئتي صفحة من القَطْع A4، فيما يزيد على (٣٥٠٠٠) كلمة.

لقد كنت محظوظًا بأنَّ كاتبنا قد عاصر هذا البحث منذ أن كان فكرة حادثْتُه فيها وأنا لا أعرفه، وإنما شدَّني إليها جودةُ كتابته في صفحته، ثم عزمت وجمعت مقالاته المذكورة، ثم أرسلت إليه المجموع الذي اخترته فأشار إلى أنها من خيرة ما كتب، ثم مضت سنتان فأرسلت إليه مسوّدة البحث قبل نشره، فراجعها وأمدّني ببعض البيانات والملحوظات المهمة، من ذلك سيرته الذاتية التي كتبها بنفسه لأفيد منها في التعريف بالكاتب، ومنها إطْلاعي على بعض ما يعزم على نشره مما له عُلْقةٌ بموضوع البحث[٢]. وإنني لا أملك إزاء نُبل الدكتور وخُلقه

(١) بدأ إعداد البحث منذ سنة ٢٠٢٢م، وهذا هو السبب في وقوع الاختيار للمادة على السنة السابقة عليها.

(٢) أخبرني الدكتور عاطف معتمد بقرب صدور كتابٍ له بعنوان: (صوت المكان)، وأرسل إليّ –مشكورًا– نسخةً من (مخطوطته)، وهذا نُبلٌ منه، هذه المقالات عبارةٌ عن اختياراتٍ =

الفاضل إلا أن أثني على صنيعه لي، داعيًا له بدوام التوفيق والسداد من الله عز وجل.

وبعد، فهذا البحث يتكوَّن من مقدمات ضروريّة: في الكلام على البحوث السابقة، والتعريف بالكاتب، وتحرير مصطلح المقال، وأدبيّته، والأدب الرقميّ. ثم ينقسم ثلاثة أقسامٍ كبارٍ: قسم للمضامين، وقسم للتشكيل الفني، وقسمٍ ثالثٍ خصصنا به النص الموازي، ثم خاتمة البحث.

البُحُوث السَّابقة:

وضع إغناطيوس كراتشكوفسكي كتابه الشهير (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)[(١)]، وهو غير مختصٍّ بالأدب بمصطلحه الفنّي اللغويّ المستقرِّ حديثًا، بل يجري في مصطلح (الأدب) على طريقة مؤرّخي الفنون والعلوم من أمثال بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي يعني به التراث العربي بإجمال[(٢)]. وهذا ما قصد إليه كراتشكوفسكي في كتابه؛ فهو يعني به (تاريخ

=

من مجمل مقالاته، وفيها مقالات جغرافية وغير جغرافية، كما تشمل ألوانًا من المدوّنات: مقالاتٍ وغيرها، وهي تشمل حديثًا عن مصر وعن روسيا التي درس فيها الدكتوراه وعمل بها بعض الوقت. واستتمامًا للفائدة أرسل إليّ كذلك –مشكورًا– (بروفة) كتابٍ آخر جمع فيه مراجعاته وعروضه للكتب مما نشره في صفحته الفيسبوكيَّة، بعنوان: (فواتح شهيَّة: كتب عن الأماكن والناس)، سيصدر قريبًا إن شاء الله. وبذلك تظل صفحته في الفيسبوك هي المصدر المتاح لاستقاء المادة، ويمكن الرجوع إليه.

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، لإغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، دت).

(٢) ارتضى الدكتور النجار –أولُ من شرع في ترجمة كتاب بروكلمان– لفظة الأدب ترجمةً لمصطلح Litteratur الألمانية الواردة في العنوان؛ وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمود فهمي حجازي المشرف على ترجمة الكتاب من بعد: "وإذا نظرنا في أي معجم اشتقاقيٍّ

=

التراث الجغرافي العربي) بكل ما صُنِّف فيه، لا الأدب بمصطلحه المخصوص المعروف.

فالأدب الجغرافي عند كراتشكوفسكي إذن ليس مقصودًا به الأدب باصطلاحه الفنّيّ الجَماليّ.

ومن خلال بحثي في مظانّ المصادر لم أجد من تناول البحث بالدراسة من قبل.

الكَاتِب:

الدكتور عاطف معتمد عبد الحميد محمد، ولد سنة ١٩٦٩م، وهو أستاذ الجغرافيا الطبيعية في قسم الجغرافيا بكلية الآداب، بجامعة القاهرة. نال الماجستير سنة ١٩٩٦م من الجامعة ذاتها، والدكتوراه من جامعة سانت بطرسبرغ بروسيا الاتحادية سنة ٢٠٠١م.

تدرَّج في الوظائف الأكاديمية حتى وصل إلى رتبة (أستاذ) بجامعة القاهرة سنة ٢٠١٢م.

حاز جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية لسنة ٢٠٠٩م، وشغل منصب المستشار الثقافي ورئيس البعثة التعليمية بسفارة جمهورية مصر العربية في موسكو (٢٠١٤ – ٢٠١٦م).

=

للغة الألمانية لوجدنا الكلمة Litteratur تعني عندهم ما نعنيه بكلمة "التراث المدوَّن" أو "الكتب" أو "المراجع". وهناك فرقٌ بين الأدب بمعناه الفني... وبين الكتب عمومًا... ومن هنا كنتُ أفضِّل كلمة "التراث"... غير أنني أستخدم هنا الترجمة الشائعة للعنوان تقريبًا وتيسيرًا" (كارل بروكلمان بين التراث العربي وعلم اللغة المقارن، للدكتور محمود فهمي حجازي ص١٥، مجلة الكتاب العربي، العدد ٤٥، القاهرة ١ أبريل ١٩٦٩م)؛ وانظر أيضًا مقدمة كراتشكوفسكي في: تاريخ الأدب الجغرافي ص١٤.

نشـر الـدكتور عـاطف معتمـد بعـض المقـالات فـي الصـحف والمواقـع الإلكترونيـة المختلفـة، ولكـنّ مكـان نشـره الأساسـيّ للمقـالات هـو صـفحته فـي الفيسبوك[١]. كما أجرى العديد من اللقاءات التلفزيونية المسجّلة[٢].

نشر ما يربو على عشرين بحثًا علميًّا، وترجم من الروسية والإنجليزية ما يزيد على عشرين كتابًا أصالةً أو اشتراكًا. وشارك في تحرير النسخة العربية من موسـوعة (بريتانيكـا)، وموسـوعة البحـر الأحمـر الصـادرة عـن دارة الملـك عبـد العزيز، وغير ذلك[٣].

كتب مجموعةً من الكتب والبحوث المتخصصة، واشتغل بترجمة مجموعة أخرى في التخصص وفي غير التخصص، من ذلك على سبيل المثال:

- مع الجغرافيا والإنسان في مصر والعالم "المشروع الفكري عند محمد رياض"، القاهرة ٢٠٢٣م.
- ما بعد الشيوعية.. الدين والثورة والقومية في زمن التحولات، القاهرة ٢٠٠٧م.
- الصـراع الروسـي الشيشـاني فـي ضـوء الرؤيـة الجغرافيـة لنزاعـات القوقـاز، القاهرة ٢٠٠٤م.
- الصراع العربي الإسرائيلي وآفاق إقامة الدولة الفلسطينية، القاهرة ٢٠٠٣م.
- التصـحر.. التهديـد والمجابهـة، تـأليف آلان جرينجـر (ترجمـة)، القـاهرة ٢٠٠٢م.
- النظـام العـالمي.. قديمـه وحديثـه، تـأليف نعـوم تشومسـكي (ترجمـة)، القـاهرة ٢٠٠٧م.

(١) انظـــر صـــفحة الـــدكتور عـــاطف معتمـــد فـــي الفيســـبوك: https://www.facebook.com/atef.moatamed.

(٢) يمكن مراجعتها في اليوتيوب مثلًا، وسوى ذلك للكاتب صفحة خاصة به في ذلك الموقع.

(٣) استقيت هذه المعلومات من السيرة الذاتية التي أرسلها الكاتب إليّ.

- الاغتيال الاقتصادي للأمم، تأليف جون بيركنز (ترجمة)، القاهرة ٢٠٠٨م.
- الإخراج السينمائى.. كيف تصنع فيلمك الأول بالديجيتال؟ تأليف تروي لانير وكلاي نيكولاس (ترجمة)، القاهرة ٢٠٠٧م[١].

مصطلح المقالة:

"المقالة" من القول، والقول هو الكلام في العموم، ومع هذا فإنَّ فنّ (المقالة) بمصطلحه المعروف فنٌّ حديث بزغ في هذا العصر، وأما أنه قد ظهرتْ قوالب تُشبه فنّ المقالة عند العرب أو عند غيرهم قبل العصر الحديث، فهذا مما لم تكن القصديَّة سبيلًا إليه، والقصد أصلٌ من أصول الإنشاء.

وفي العصر الحديث يستعمل الكتّاب والنُّقّاد هذا المصطلح بالتذكير والتأنيث: المقال، والمقالة، ولا مشّاحّة في هذا، فإنهما اسمان لمسمّى واحد[٢]. ولعل من المناسب أن أشير هنا إلى ميل كاتبنا إلى تذكير لفظ (المقال) أكثر من تأنيثه، كما يظهر من مجمل ما عرضنا من الأمثلة.

فإذا ذهبنا نبحث عن تعريف جامع للمقالة "أعيانا البحث، وضلّت بنا سُبُله"[٣]، كما يقول الدكتور محمد يوسف نجم؛ نظرًا لتشعُّب أطراف هذا الفنّ واختلاطه بالفنون الأخرى على صورة من الصور. فإذا شئنا أن (نَصِفَه) لا أن نحدّه فإنَّ المقال: "قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تُكتب بطريقة عفْويةٍ سريعةٍ خاليةٍ من الكُلفة والرَّهق. وشرطُها الأول أن تكون تعبيرًا صادقًا عن شخصية الكاتب"[٤].

---

(١) انظر موقع (المعرفة): https://2h.ae/yDvQ.

(٢) انظر: معجم المصطلحات الأدبية، مادة: "المقال، المقالة"، لإبراهيم فتحي، ص٣٤٠ (التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، ١٩٨٦م).

(٣) فن المقالة، للدكتور محمد يوسف نجم ص٧٦ (دار صادر، بيروت، ط١/١٩٩٦م).

(٤) فن المقالة، للدكتور محمد يوسف نجم ص٧٦.

وعلـى هـذا النحـو إنْ فتّشـنا عـن تعريـفٍ للمقـال فـي بعـض معـاجم المصطلحات الأدبيّة، فإننا نجد أحدها لا يستطيع وضع حدٍّ فاصلٍ له، بل يكتفي بالقول بأنه نوعٌ أدبيٌّ محدَّدٌ بحيّز الجريدة أو المجلة، ويعالج مجموعة معينة من الأفكار(١). وليس هذا بتعريف ضابط، بل هو وصفٌ يحومُ حول المعنى. على حين يذهب معجم آخر إلى رأي أقرب إلى التصور، من أنه ثَمّ صعوبة في تعريف المصطلح تعريفًا جامعًا يقبله الجميع(٢).

من العسير إذن صياغة تعريفٍ جامعٍ لفنّ المقال، لكثرة فنونه وتنوُّع موضوعاته، ولامتياحه من أجناسٍ أدبيةٍ وعلميّةٍ مختلفة. نعم يمكننا وضع ضوابط شكليةٍ له من حيثُ الطولُ والمقدارُ بطريقةٍ ما، وحتى هذه لن تخلوَ من اعتراضٍ عليها؛ على أنه ليس بالشكل وحدَه تتمايزُ أجناسُ القول الأدبي. إنَّ المقال –كما يُعبِّر أحدُ الدارسين– "عَصِيٌّ على الحَدّ"(٣)، وإن كنّا نتصوره ونعرفُه! وهذا الاستعصاء والتمنُّع على الحد مصدرُ قوّةٍ –في الحقيقة– فيه؛ فإنه يمنحُه حيويَّةً وجاذبيّةً ومرونةً دائمةً عند من يُحسِن التّأتيَ إليه.

ربما يكون ما التفت إليه الدكتور عبد اللطيف حمزة مدخلًا جيدًا لتفسير العُسر عند تعريف هذا المصطلح، فقد رأى أن أرباب اللغة الإنجليزية قد أطلقوا على "المقالة" لفظةَ: Essay، وهي تعني "محاولة"(٤)، وهذه التسمية تفسّر –

(١) انظر: معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، للدكتور سعيد علوش، مادة: "المقالة لأدبية" ص١٨٣ (دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ).

(٢) انظر: معجم المصطلحات الأدبية، مادة: "المقال، المقالة"، لإبراهيم فتحي، ص٣٤٠.

(٣) المقال الأدبي، لأحمد السماوي ص٣٥ (مسكيلياني للنشر، ضمن سلسلة ألف، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، دت).

(٤) المدخل في فن التحرير الصحفي، للدكتور عبد اللطيف حمزة، ص٢٥٦ (الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط٥/٢٠٠٢م).

علاوةً على العسر – أشياءً مهمّةً في المعنى الذي يتضمّنه المصطلح؛ إذ هو محاولةٌ في الطرح، لا ترنو إلى الاكتمال الأكاديمي، ولا إلى البحث المنهجي، ولا إلى منطقيّة العلم الحازمة، بل على العكس، هي محاولةٌ لمخاطبة القدر الكبير من الجماهير، بلغةٍ مفهومةٍ جاذبة.

أدبيَّة المَقَال:

يختلف النقّاد في مسألة انتماء المقال للأدب بناءً على فكرة القَصْديَّة، فقد ذهب بعضهم إلى أنه متى كانت النيّةُ من إنتاج الأثر جماليَّةً فنِّيّة؛ فهو داخلٌ في مفهوم الأدب، "وأما الآثار التي يجد فيها هذا القارئ أو ذاك جماليَّةً ما، ولم تكن موضوعةً بقصد جماليّ فليست من الأدب"(١). وهذا تضييق لواسع؛ فإن القصدية وحدها لا تكفي لذلك، فكم قصد أصحاب آثارٍ قوليّة جمّة إلى أن تكون أدبيّة فلم يُكتبْ لهم النُّجْحُ في ذلك، وكم من آثار لم يكن قصد صاحبها أدبيًّا في الأساس وهي معدودةٌ في الأدب الرَّفيع(٢)، ولا سيَّما في مجال النثر، الذي ينبغي أن نتوسَّع بمفهومه حتى يشمل ألوانًا مختلفةً من المدوّنات القوليَّة الرائعة، التي يقبلها مفهوم الأدب، بغضّ النظر عن قصديَّة الكاتب هنا، وهو ما انتهى إليه بعض النُّقّاد في العصر الحديث، وهو ما نؤيّدهم عليه.

من الممكن تقسيم المقالة الأدبية في بنائها ومحتواها –كما عند بعض الدارسين(٣)– في ثلاثة اتجاهات:

(١) المقال الأدبي، لأحمد السماوي ص٣٨.

(٢) انظر أمثلةً منوّعةً على هذا في: مختارات من النثر العربي، للدكتورة وداد القاضي.

(٣) انظر: العنوان في الأدب العربي، للدكتور محمد عويس ص٢٧٠–٢٧١، والعناوين الفرعية للفصل الخامس في الكتاب ص٢٤١.

- المقالة ذات النزعة الفنية الأدبية، أو مقالة (الأديب العالم)، كما عند الرافعيّ في (وحي القلم). نجد أصداء هذا النموذج فيما يُنشر في الصحف لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وثروت أباظة ويوسف إدريس، ونحوهم.
- والمقالة ذات النزعة العلميّة الأدبية، أو مقالة (العالم الأديب)، كما عند أحمد أمين في (فيض الخاطر). نجد أصداء هذا النموذج فيما يكتبه للصحافة الدكتور زكي نجيب محمود والدكتورة بنت الشاطئ.
- والمقالة الأدبية الصحفية ذات السمة الآنيّة، كما في (وحي الرسالة) للزيّات. وأصداؤه في كتّاب الأعمدة واليوميات في الصُّحُف.

إنَّ كتابات الدكتور عاطف معتمد المقاليّة أقرب ما تكون إلى الاتجاه الثاني (مقالة العالم الأديب).

من هذا المنطلق نُدخل مقالات عاطف معتمد في حديقة الأدب، على أنّنا نزعم أنّ السواد الأعظم من تلك المقالات كان قصديّتُها الأدب، الأدبَ المحتوي على فكر صاحبه وخبراته وثقافته، وتلك خصيصةٌ من خصائص النثر الصميم.

لقد كان كاتبنا على وعيٍ بوجود هذا النوع من المقالات التي يكتبها العالم الأديب، ولذا صدَّر مقالةً له بهذا العنوان: (في بلاد العبابدة ... أدب الجيولوجيا الوثائقي!)، عرض فيه لكتاب الدكتور محمد سمير خواسك، كتب فيه: "وضع محمد سمير خواسك كتابه "في بلاد العبابدة" بطريقة مثالية في أدب الرحلات. بدأ رحلته من محطة قطار الجيزة مرورًا بالمنيا ووصولًا إلى قنا، ومن هناك بدأ رحلته مع أعضاء معسكر للبعثة الجيولوجية عبر وديان وجبال الصحراء الشرقية"[1].

(١) في بلاد العبابدة ... أدب الجيولوجيا الوثائقي! ١٥ ديسمبر ٢٠٢١.

الأَدَبُ الرَّقْمِيّ:

كثُر التنظير أخيرًا للنصوص الأدبية التي اتخذت من شبكة المعلومات (الإنترنت) وشبكات التواصل قالَبًا لها، ابتداءً من المصطلح الذي يطلق عليها، ما بين: الأدب التفاعلي، أو التشعُّبي، أو المفرَّع، أو المترابط، أو المتعالق، أو الهايبرتكست (Hypertext) ... إلخ(١).

والحقيقة أن مصطلح الأدب التفاعلي ونحوه من المصطلحات المشابهة تنصرف إلى نوعٍ محددٍ من الأدب الحاسوبي الذي من أهم سماته: الاعتماد على وسيط رقمي، ولا يمكن أن يُنشر ورقيًّا، وهو يتكئ على تقنية التشعيب أو الترابط، ويمنح المتلقي مساحةً موازيةً للاشتراك في إنتاج النص: إضافةً وحذفًا وتعديلًا، كما أنه يظهر حساسيةً مفرطةً تجاه الحدود، ويُشترط أن تجتمع هذه السمات معًا لا واحدة أو اثنتان منها، "فالوسيط الرقمي وحده لا يعني بالضرورة نصًّا تفاعليًّا، وتقنية التشعيب وحدها لا تعني بالضرورة نصًّا تفاعليًّا..."(٢).

إنَّ إطلاق هذا المصطلح أو أيًّا من إخوته على ما بين أيدينا من أدب المقالة إطلاقٌ غير صحيح.

ولعلَّ أقرب المصطلحات لما نحن فيه من أدب هو مصطلح (الأدب الرقمي)، فهو قادر على استيعاب الأجناس الأدبية المعروفة وما يمكن أن يتوالد

(١) انظر: الأدب والتكنولوجيا: تأملات في النص التفاعلي والتفاعل الرقمي، لأحمد زهير رحاحلة ص٢١ (حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية، حولية ٣٨، رسالة ٤٩٠، ديسمبر ٢٠١٧، الصفحات ٩-١٢٢).

(٢) الأدب والتكنولوجيا: تأملات في النص التفاعلي والتفاعل الرقمي، لأحمد زهير رحاحلة ص٨٧.

عنها بسببٍ من تزاوج الأدب والتكنولوجيا(١). ولذا ارتضينا وضعه في عنوان هذا البحث.

الكاتبُ والنَّوع الأدَبي:

يعي الكاتب الدكتور عاطف معتمد أن ما يكتبُه (مقالٌ)، فهو يعرف فنَّه الذي اختاره للتعبير عن أفكاره ومشاعره، ويعرف حدودَه وخصائصَه، كما أنه قد اطّلع على مادّته النظريَّة، وقرأ كثيرًا من تمثُّلاته مثلما يتضح من سياق مقالاته(٢). وما نُطْلقه من مثل هذا الحكم ليس من قبيل التوقُّع، بل إنَّ الرجل يكتب في مقالاته شيئًا من خصائص المقال الجيّد في رأيه، ويذكر أن ما يكتبه (مقالٌ) صُراحًا، كقوله مثلًا: "على نحو ما أوضحنا في مقال أمس الذي يحمل عنوان "الشلال في الشلال"(٣)؛ وقوله مثلًا: "لأسباب التغير المناخي التي ناقشناها في المقال السابق"(٤). وهو لا ينى يتحدّث في مقالاته هذه عن أنَّه سيكمل الموضوع في "المقال" المقبل(٥)، فلفظة المقال تسري في عموم ما كتب.

إن منشوراته في الفيسبوك ليست منشوراتٍ مقتضبةً أو لداعي التسلية، وليست منشوراتٍ متعجّلةً أو تخضع للمجاملة الاجتماعية، بل إنها مقالات تامّة تمثل مشروعًا فكريًّا واضحًا، وتمتاز بالخصوبة والاستمرارية والجديّة. وقد اجتهدت في الاستدلال على معرفة المؤلف بالقالب الذي يكتب فيه من أجل

(١) الأدب والتكنولوجيا: تأملات في النص التفاعلي والتفاعل الرقمي ص٨٨.

(٢) انظر مثلًا قراءته لمقال كتبه في تحليل قصيدة (النهر الخالد) لمحمود حسن إسماعيل (انظر مقال: شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.

(٣) أسوان... الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

(٤) هل تختفي إسكندريتنا؟! ٦ نوفمبر ٢٠٢١.

(٥) رصد البحث المواضع التي ذكر فيها هذا عند دراسة (الخاتمة)، بما يغني عن إعادتها هنا.

إثبات هذه الحقيقة، تلك الحقيقة التي تعرض للفن الذي يكتب من خلاله المؤلّف أفكاره، لا كما هو الشائع في تلك الوسيلة من الكتابات، وإن كانت صفحتُه مع ذلك لا تخلو من شيء قليلٍ مما يخوض فيه الناس، من نحو تهنئةٍ أو إعلانٍ أو متابعة.

أولًا: المَضَامين

من الممكن تقسيم مضامين مقالات عاطف معتمد على جانبين، أو مِساحتين: المساحة العلميَّة، والمساحة الفنيّة، ثم يتخلل هاتين المساحتين شقٌّ للنقد الاجتماعي. ولذلك سوف نعرض لهاتين المساحتين ولهذا الجانب الاجتماعي، بحيث نستطيع الوقوف على ما كان يدور من نقاشٍ أو أفكارٍ أو خلافه في أَتُون تلك المقالات.

أ- المِساحة العلميّة في المقالات:

لا يُشترط في المقالة الأدبية –حتى لو بدت بهيئةٍ علميَّة– أن تستقرئ موضوعًا كاملًا أو تحيطَ به، ولا يمكن لها أن تكون؛ ذلك أن المساحة المتاحة لها لا تستوعب ذلك، والجمهور الذي يقصدها لا يبتغي هذه الأكاديمية المنهجية؛ فليس محلها ها هنا في المقالة، بل هنالك في البحوث الطويلة المحكَّمة، وقد عرف صاحبنا ذلك تمام المعرفة فلم يُعره جُهدَه، إذ يقول: "المقال ليس بحثًا أكاديميًّا يقوم على فرضية ومشكلة بحث ونتائج وخاتمة بل هوية المقال الأساسية هي الانتقال من فكرة لأخرى على غير هدى..."[(١)]. وإنّ المقالة إن نحتْ نحو الإيعاب والتقسيم لم تعد مقالةً بصيغتها الأدبية[(٢)]، بل أمست شيئًا آخر لا يمكن

(١) كتب هذا في منشورٍ في صفحته من غير عنوان في: ١١ يوليو ٢٠٢١.

(٢) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ص١١ (دار الشروق، القاهرة، ط١٩٨٢/٢م).

أن يُسمّى مقالـة، ولا يمكـن لهـا فـي هذه الحالـة إلا أن تبـوء بالفشـل الأدبـي، إن صحَّ هذا التعبير.

ومـع أنَّ فـنَّ المقالـة لـيس مقصـودًا بـه الكتابـة العلميـة البحتـة أو البحـث الأكـاديميَّ المتخصـص؛ فإننـا لا نعـدم فـي كتابـة الـدكتور عـاطف معتمـد –وهـو الأستاذ المتخصص– تدقيقاتٍ علميةً وتصويباتٍ مهمة يسوقها بطريقةٍ سلسة في مقالاتـه، بحيـث لا تمثـل هـدفًا فـي ذاتهـا للكتابـة، بـل تـأتي مـن قبيـل الفوائـد العارضة، أو حتى إن كانت مقصودةً فإنها لا تستحوذ على مقالٍ من المقالات من أصله بحيث يغدو علميًّا جافًّا، أو تقريريًّا مباشرًا.

يهتمُّ الكاتبُ في بحوثه بالعمل الميداني، ومنه يستلهم أفكار مقالاته في معظـم الأحيـان، ربمـا يصـوغ ذلـك الجهـد الميـداني بحوثًـا فـي كتـب علميـة أو موسوعاتٍ متخصصة، ولكنـه فـي مقالـه يخاطـب عموم الجماهير لا المختصين وحدهم. وهذا العمل الميداني والزيارات المباشرة للأماكن والبقاع المتباعدة في القطـر المصـريّ شـرقًا وغربًـا مـنح المقـالات حيويَّـة لا تخفـى، ومـنح كاتبَـه تميُّزًا وبصمةً كتابيّةً خاصةً به.

تحتوي المقالات بحوثًا جغرافية لا غرو، فالجغرافيا مجال الكاتب، وسوف نوسّع الحديث في هذا الجانب بعد يسيرٍ حين نعرض للجغرافيا في المقالات.

وفـي المقالات انشغالٌ واضح بعلم الآثار الذي يراه الكاتب متصلًا شديد الصـلة بعلـم الجغرافيـا، ويبـيّن دائمًـا فـي كتابتـه علاقـة تلـك الآثـار بالأمـاكن، فالجغرافيا سببٌ من أسباب تلك الآثار، بل لعلها السبب الأكبر لتلك الآثار، وقد يمتد كلامه إلى النقد الأثري العميق من نحو قوله: "أقيم العرس غير بعيد عن القلعة التاريخية للمكس، من أسفٍ أن هذه القلعة تهدمت ولم يبق منها أثر دال علـى الجمـارك والمسـتودعات والحراسـة. وبينمـا تـأتي هنـا البعثـات الفرنسـية والإيطالية والألمانية للبحث عن كل شاردة في التاريخ المسيحي للمنطقة؛ يُهال

التراب (عن عمد أو من دون عمد) على ما يخص التاريخ الإسلامي والعربي في صحراء مصر الغربية"[١].

يمزج الكاتب كذلك الجيولوجيا بالجغرافيا، وهما متمازجان حقًّا، لكن صاحبنا مثالٌ للأستاذ المطِّلع على الفنون المتاخمة لفنّه، يقول مفسِّرًا ظاهرةً علميّةً قديمة يربط بها بين أرجاء مصر وتضاريسها: "صحيح أن جبل الشايب لا يقدم اليوم أية مياه لنهر النيل منذ أن حل الجفاف على بلادنا قبل آلاف السنين وأصبح النهر رهينًا لأمطار الحبشة، إلا أن الأصل الجيولوجي والمناخ القديم لم يكن على هذا النحو. فقد كان الشايب ومعه قمم جبلية عديدة تفيض مياها إلى وادي قنا بكميات مياه ضخمة، وكان وادي قنا واديًا سابقًا على نهر النيل يتدفق في الصحراء الشرقية واصلًا إلى ما نسميه اليوم الصحراء الغربية"[٢].

كما إن في المقالات بحوثًا لغويّةً: عربيةً وأجنبيةً في أسماء الأماكن الجغرافية. فمقاله: "الطيب وبلاد طيبة"[٣] مثالٌ لبحث لغوي في أسماء الأماكن الجغرافية.

وفي مقالٍ آخر يعرض لبحثٍ علمي في مقالٍ بعنوان: "٣٢٠٠ سنة على "النار العاتية" في أبو سمبل"، وهو عرضٌ لبحث متعمق في الأدب المصري القديم كتبه الدكتور هاني رشوان، يقدم للمرة الأولى ترجمة لنصٍّ من الهيروغليفية إلى العربية يوثق فيه رمسيس الثاني ما اعتبره انتصارًا كاسحًا في المعركة الشهيرة "قادش"، وفيه يدعو صاحبُ البحث إلى "اتجاه مغاير في دراسة الأدب المصري القديم وهو ضرورة التعمق في التجليات البلاغية دون الانسياق وراء

(١) حفل زفاف في ضواحي باريس! ١١ أغسطس ٢٠٢٠.
(٢) شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.
(٣) الطيب وبلاد طيبة! ٧ ديسمبر ٢٠٢١.

بعض المدارس الأوروبية التي لا ترى في هذه النصوص سوى وسائل من الدعاية السياسية"[١].

وهنا نشير إلى أن عرض الكتب والبحوث عربيةً كانت أو أجنبيّةً؛ جانبٌ علميٌّ مهم حاضرٌ في مقالات الدكتور عاطف معتمد[٢].

أما بحثه بعنوان: (اللغة والبيئة)؛ فإنه يشرح لنا فيه معنى النقش الذي احتفظت به اللغة المصرية القديمة الذي يصور مركبًا مفرود الشراع في مقابل المركب الذي طُوي شراعُه، فالرياح في مصر التي تدفع المراكب تهب من الشمال إلى الجنوب فتعينها على مخر عباب النيل الذي يسير بالعكس، "ومن ثم فإن القارب المفرود الشراع في اللغة المصرية القديمة كان يعني "الاتجاه جنوبا" أو "الاتجاه نحو المنبع" أو ببساطة يعني هبوب الـ"رياح" أو "انطلاق من سكون " كما كانت تعني في سياقات أخرى "يتنفس" و"هواء"، أو قد تشير إلى الملّاحين المندفعين في البحر والنهر تفتيشًا وبحثًا وإبحارًا"[٣]. وهكذا يمضي في ولعه اللغوي حين يتعلق الأمر بالجغرافيا، أو الجغرافيا اللغوية إن شئنا أن نقول.

إننا نثبت هنا أن الدكتور عاطف معتمد محبٌّ للجغرافيا، باحثٌ عنها في كل ما تمثّله الحياة والكائناتُ والعلومُ والفنونُ واللغاتُ من حوله، إنه يريد للجغرافيا أن تتمثّل في كل شيءٍ يمكن أن ينطق أو يُعبِّر أو يُلْهِم.

جغرافيَّة مِصر في المَقالات:

إذا تتبَّعنا الجغرافيا المصريَّة في مقالات عاطف معتمد –وهي موضوع مقالته في هذه الدراسة والسبيل إلى أدبه– فإننا سنجد الكاتب قد اخترق الآفاق

(١) ٣٢٠٠ سنة على " النار العاتية" في أبو سمبل، ١٠ فبراير ٢٠٢١.

(٢) انظر مثلًا مقاله: كلابشة.. الخوف والرجاء! ١٥ فبراير ٢٠٢١. ومقاله: في بلاد العبابدة... أدب الجيولوجيا الوثائقي! ١٥ ديسمبر ٢٠٢١، وغيره من المقالات.

(٣) اللغة والبيئة! ٦ فبراير ٢٠٢١.

المصرية شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، ومن المهم أن ندلّل على ذلك بحصر أسماء المدن والقرى والبقاع في المقالات التي هي محل الدراسة؛ لنتبيّن مصريّة هذه المقالات بحق، وتنوّعها، وشمولها أرجاء الديار تلك الديار، مع وعينا بأن طائفةً من هذه البقاع ليست إلا مدخلًا ذاتيًّا يُطل الكاتب من خلاله على آرائه وأفكاره ونوازعه الروحيَّة والنفسيَّة.

من الممكن تقسيم الأماكن التي اقتحمها عاطف معتمد في كتاباته على القطاعات الكبرى في الإقليم المصري، على النحو الآتي تبعًا للترتيب الكَمِّي: أسوان والنوبة، الإسكندرية، الصعيد بمكوّناته، الصحراء والجبال المصرية، الدلتا بمكوناتها، البحر الأحمر، واحة سِيوة، المناطق البدوية، القاهرة، نهر النيل.

فائدة هذا التقسيم أنه يعطينا تصورًا عن مدى اهتمام الكاتب بكل قطاعٍ على حدة، ونستطيع من خلاله عقد مقارنة بالمساحة التي احتلتها تلك الأماكن والبقاع في المقالات، واتجاهات الكاتب نحو أي اتجاه جغرافي في الكتابة.

أسْوان والنوبة:

لا يخفى على قارئ مقالات عاطف معتمد عشقُه بلاد أسوان والنوبة، وهيامه بأرض هذا الإقليم وناسه، وسوف نستعرض المقالات التي عرض فيها لهذا الإقليم المصري العريض الذي جاء في المرتبة الأولى لديه على النحو الآتي:

١. أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟ (١٨ مارس ٢٠٢١): تناول فيه هضبة "سن الكداب"، وهي أشهر هضبة وأكبرها في غرب بلاد النوبة وتقدر مساحتها بمئات الكيلومترات.

٢. مئذنة بلال! (١١ فبراير ٢٠٢١): ذكر فيه السَّدَّان في أسوان وأثرهما على العمارة الإسلامية تحديدًا.

٣. الجزيرة المحرمة تعود للشعب! (١٢فبراير ٢٠٢١): جزيرة النباتات في نيل أسوان.

٤. كلابشة.. الخوف والرجاء! (١٥ فبراير ٢٠٢١).
٥. أبو الهوا (١٦ فبراير ٢٠٢١): يقول: "أسوان هي جبل أبو الهوا، وجبل أبو الهوا هو أسوان".
٦. النوبة: بلاد الذهب أم أرض النبال؟! (17 فبراير ٢٠٢١): في سبب تسمية النوبة.
٧. حفل زفاف في ضواحي باريس! (٢١ أغسطس ٢٠٢١): يقول: "لبّيت ليلة أمس دعوة لحفل زفاف في قرية المكس وهي آخر قرى المعمور المصري التاريخي قبل تخومنا مع السودان. تقع المكس إلى الجنوب مباشرة من بلدة بَريس Bares التي حُرّف اسمها على الخرائط الحديثة ليصبح باريس Paris بنفس هجاء العاصمة الفرنسية!".
٨. أسوان.. خجل كان يمكن تجنبه! (١٤ نوفمبر ٢٠٢١): كتبها بمناسبة السيول التي ضربت أسوان في نفس السنة، دعا الكاتب في مقاله إلى: "الاهتمام "بمحافظة" أسوان وليس "مدينة" أسوان. ذلك لأن المحافظة تشمل البلدات والقرى الأكثر عرضة للخطر والممتدة شرقًا وغربًا بين الصحراوين الشرقية والغربية، وشمالًا وجنوبًا بين الأقصر وخط الحدود مع الأشقاء في السودان. يقول: "أنا لا أحب مدينة أسوان وحدها، بل أسوان كلها: أبو الريش، الخطارة، الأعقاب، الجعافرة، دراو، وكوم أمبو.. وعشرات أخرى من البلدات والقرى".
٩. أسوان...الشلال x الخزان! (١٦ نوفمبر ٢٠٢١): قصة جرف مياه السيول لمجرى الوادي في أسوان.
١٠. النسوية في جغرافية النوبة! (١٨ نوفمبر ٢٠٢١): "من المدهش أن كل تقاليد "مساواة المرأة بالرجل" و"تمكين المرأة" و"مشاركة المرأة للرجل في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية" كانت ذات نسخة خاصة جدًّا في إقليم النوبة".

١١.يونس في بلاد الشوق! (١٩ نوفمبر ٢٠٢١): عن الخلفيات الجغرافية لـ "السيرة الهلالية"، كتبها أمام خزان أسوان عند غرود بربر الرملية.

١٢.أيهما نختار: شفاء من الداء أم مسكن موضعي!؟ (٢٠ نوفمبر ٢٠٢١): في إثر السيول التي اجتاحت أسوان.

١٣.الشمندورة! (٢٢ نوفمبر ٢٠٢١): عنوان لرواية تتحدث عن النوبة قبل الفيضان، تعني: الفنار، وكان النيل قبل الخزان (سد أسوان) بحرًا يحتاج إلى منارات هادية للسفن فيه من الاصطدام بالصخور الخفية.

١٤.الأنثروبولوجيا الثقافية في النوبة! (٢٨ ديسمبر ٢٠٢١): عن المجموعة القصصية (ليالي المسك العتيقة) للأديب النوبي السكندري حجاج أدول. وهي تضم مشاهد بانورامية للحياة في بلاد النوبة قبل قرن من الزمان. استطاع الكاتب "إحياء مشاهد الحياة اليومية في القطاع المصري الممتد في بلاد النوبة بين أسوان شمالا ووادي حلفا في السودان جنوبا، قبل أن تغمره مياه خزان أسوان ثم السد العالي ببحيرته المسماة بحيرة ناصر، ويتم تهجير سكانه إلى شمال أسوان".

الإسكندرية:

تبدو مقالات الدكتور عاطف معتمد في الإسكندرية نظريّةً أكثر منها ميدانية، مقارنةً بدراساته لأسوان والصحراء الشرقية مثلًا، على النحو الآتي:

١. الباشا يراقب الإسكندرية بفاصل ٤٠ دقيقة (٦ سبتمبر ٢٠٢٠): عن أعمدة التلغراف بين القاهرة والإسكندرية، "لا أعرف ماذا تبقى من هذه الأبراج في المحطات الـ ١٩ والتي يمكن إن تم تأهيلها أن تكون بمثابة متاحف تابعة لوزارة الاتصالات ودليلا على جغرافية مصر وتاريخها قبل ٢٠٠ سنة، وهو أحد الأهداف المهمة للتعليم والثقافة والوعي الأهلي".

٢. مقالة دون عنوان (١٩ سبتمبر ٢٠٢١): عن (العصافرة بحري) الحي المعروف في الإسكندرية.

٣. الإسكندرية... الحضارة في العمارة (٢٠٢١/١٢/11): العمارة المشهورة في الإسكندرية التي مثّل فيها أبطال فيلم ميرامار لنجيب محفوظ.
٤. الإسكندرية...مرآة البحر (١٠ نوفمبر ٢٠٢١): قراءة خاطفة لرواية نجيب محفوظ التي تحكي عن الإسكندرية في مرحلة الانتقال من الملكية إلى الجمهورية. "ميرامار كلمة ذات أصل برتغالي وإسباني بمعنى "مشهد على البحر". تقول القواميس إن الكلمة مؤلفة من مقطعين mirar وتعنى يشاهد أو ينظر، وmar وتعني البحر. ويطيب لي أن أترجمها هنا "مرآة البحر".
٥. الإسكندرية.. مدينتنا! (٨ نوفمبر ٢٠٢١).
٦. الإسكندرية توقظ الحس اليساري في الجغرافيا! (٧ نوفمبر ٢٠٢١): عن الحق في البحر والنهر.
٧. هل تختفي إسكندريتنا؟! (٦ نوفمبر ٢٠٢١): عن مشكلة تراجع ساحل الإسكندرية.
٨. هل تختفي الإسكندرية كما توقع رئيس وزراء بريطانيا؟! (٥ نوفمبر ٢٠٢١).

الصَّعيد:

١. قنا... افتراق الطرق وتلاقيها! (٢٧ يناير ٢٠٢١).
٢. المنيا ضحية المواقع الوسطى! (١٠ يناير ٢٠٢١).
٣. هل نسمع صوتا للأقاليم!؟ (١٣ ديسمبر ٢٠١٩): "لا جديد في الفيوم، تدهور بيئي مستمر وتوسع عمراني على الأرض الزراعية كما بقية الأقاليم، الجديد هو في خوف غير معلن من "شح المياه".
٤. الطيب وبلاد طيبة! (١٧ ديسمبر ٢٠٢١): "يتجاوز السؤال الافتراض أن الناس تفتخر باسم فضيلة الإمام، ويبدو لي أن "الطيب" اسم أبعد من هذا بكثير ويبدو متجذرا ووثيق الصلة بتاريخ الأقصر التي تعرف باسم "طيبة".
٥. 205سنة على واقعة البر الغربي! (٨ ديسمبر ٢٠٢١): "في عام ١٨١٦ نجح بلزوني في سحب وجر النصف الأعلى لتمثال رمسيس الثاني من معبد

الرمسيوم في البر الغربي بالأقصر على نحو ما توضح الصورة المرفقة، مستخدما عشرات بل مئات الفلاحين البسطاء الذين كانوا يبحثون عن أي فرصة عمل للاسترزاق ولقمة العيش في ظل احتكار محمد علي للاقتصاد المصري".

٦. في بلاد العبابدة ... أدب الجيولوجيا الوثائقي! (١٥ ديسمبر ٢٠٢١): عرضٌ لكتاب محمد سمير خواسك "في بلاد العبابدة" الذي يسرد رحلته مع أعضاء معسكر للبعثة الجيولوجية في الصحراء الشرقية.

الصَّحْراء والجِبال المصريَّة:

١. ضوي! (١٩ إبريل ٢٠٢١): جبل عجيب فريد في صحراء مصر الشرقية.

٢. شابت على أرضه الليالي (١٧ إبريل ٢٠٢١): عن جبل (الشايب) أحد أعلى جبال مصر.

٣. كتاب الدراسات، صفحة ٤٥: الصف الرابع الابتدائي! (٢٩ نوفمبر ٢٠٢١): تصحيح خطأ في كتاب الوزارة في ضبط الجيم من هضبة (الجِلف)، إذ كُتب في الكتاب خطأً بالضم.

٤. .. 1991 أبو محرك/ أبو محرق (٢٩ ديسمبر ٢٠٢١): خط كثبان رملية في صحراء مصر الغربية.

٥. أحدث مجلد عن جيولوجية الفانيروزي وموارده الطبيعية في مصر (٣٠ ديسمبر ٢٠٢١).

الدِّلتا:

١. مسافر إلى نكلا العنب! (٧ سبتمبر ٢٠٢٠): حديث عن مركز إيتاي البارود.

٢. مسافر إلى الدلنجات ١ (١٠ سبتمبر ٢٠٢٠).

٣. بطعم الجوافة! (١١ سبتمبر ٢٠٢٠): "غادرت الدلنجات قاصدا بلدة تاريخية كانت مستعمرة للتجار اليونان في عهد الفراعنة تسمى "نوقراطيس"، حرف العرب الاسم إلى الصيغة التي نعرفها اليوم "نقراش".

٤. صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! (٢٥ سبتمبر ٢٠٢١): قراءة رواية: "مناسك الخوف" لسلوى محسن، التي وصفت الريف المصري ووثَّقتْ طقوسَه ومظاهره.

البَحْر الأحمر:

١. في حميثرة سوف ترى! (١٩ يناير ٢٠٢١): عن قرية عيذاب وهي ميناء قديم للحج قريب من حلايب في شماليّها (قرب برنيس اليوم).

٢. الحي القناوي Qenatown (٩ إبريل ٢٠٢١): التجمعات القناويَّة خارج قنا في سفاجا والقصير وشمال غارب.

٣. مستنقعات الجونة! (١٥ أكتوبر ٢٠٢١): "الجونة هي ثاني أكبر نموذج في سواحل مصر التي تم تحويلها من مستنقعات إلى منتجع سياحي".

واحة سِيوة:

١. من سيوة إلى كرداسة! (١٩ سبتمبر ٢٠٢١) انحسار ثقافة الواحة لصالح أنماط حياة القاهرة والصعيد.

٢. من كرداسة إلى سيوة ! (١٩ ديسمبر ٢٠٢١): "محمود ضابط مصري في عهد الاحتلال الإنجليزي، جعل منه الأديب الرائع بهاء طاهر بطلا لروايته الشهيرة "واحة الغروب" التي تتحدث عن بانوراما الزمان والمكان في واحة سيوة نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين".

٣. الباب انشال! (٢٢ ديسمبر ٢٠٢١): عن تأسيس مدينة سيوة الجديدة سنة ٦٠٠ هـ.

المناطق البَدْويَّة:

١. بين فوكة وحمَّام الأميرات! (١٢ مارس ٢٠٢١): فوكة واحدة من قرى بدوية عديدة في رأس الحكمة على ساحل البحر المتوسط.
٢. رصاصة واحدة في جيبي! (٦ أكتوبر ٢٠٢١): الكونتيلا نقطة عسكرية نادرة في شرق سيناء على حدودنا مع فلسطين التي احتلها الصهاينة وأعلنوا فيها دولتهم منذ ١٩٤٨، كتب عنها إحسان عبد القدوس روايته: "رصاصة واحدة في جيبي"، التي صارت فيلمًا بعد عن هذه القصة بعنوان: "الرصاصة لا تزال في جيبي".

القَاهرة:

تأتي القاهرة في مرتبة متأخرة من عناية عاطف معتمد في مقالاته، وكأنه سئم الاهتمام الدائم بها فأراد أن يلفت القارئ إلى ما سواها، فتناولها في المقالين الآتيين فحسب:

١. الحق في المكان! (٢١ أغسطس ٢٠٢١): أثر خريطة (الكومباوندز) في المجتمع السكّاني.
٢. العمر الافتراضي لكلمة الـRe (٩ سبتمبر ٢٠٢١): عن أحياء القاهرة الكبرى وتحولها إلى العشوائية.

نَهر النِّيل:

للنيل منزلة خاصة عند الجغرافيين المصريين ومنهم عاطف معتمد، فقد عَرضَ له في مقالين من مقالاته على هذا النحو:

١. النيل نجاشي! (١ديسمبر ٢٠٢١): "النيل نجاشي تعنى أن النيل ملك وحاكم وسلطان، ولك أن تعرف أي سلطان وملك حكيم هذا في مسيرته الطويلة من منبعه إلى مصبه".
٢. من غير عنوان هنا (21نوفمبر ٢٠٢١): عن نهر النيل وتحقيقه المستحيل عبر السير في كل هذه الدروب والصحراء من الجنوب إلى الشمال.

ب- المِساحة الفنِّيَّة في المَقالات:

فـي نـصٍّ تائـهٍ فـي بحـر مقالاتـه الهـادر كتـب الـدكتور عـاطف معتمـد: "الجغرافي محظوظ دومًا، يقرأ المجموعات الأدبية مستمتعًا بالأدب والفنّ والخيال والإثارة، وفي نفس الوقت يفتش فيها عن الجغرافيا الثقافية المندسة من دون تلقين وسبورة، أو حفظ مدرسي تقليدي"[١].

لقد أُولع عاطف معتمد بتلمُّس الفنون التي تتصل بجغرافيّة مصر بصورةٍ ما، وكان يوظِّفها لخدمة فنّه المقالي، وهو ما أضفى على كتابته رونقًا وجاذبيّة، ولا سيّما ونحن نعلم أن الناس يطربون لهذه الفنون التي تمثّل بلدهم: سماعًا أو رؤيةً ومشاهدة. رأيناه يصنع ذلك في القصة والرواية، والغناء والشعر بشقيه: الفصيح والعامّي، ورأيناه يتلمُّسه في فنون أخرى مثل السينما والتصوير ونحو ذلك.

القِصَّة والرِّواية:

لا يُخالجني الشك في تأثير (العلماء الأدباء) الذين أسّسوا مدرسة علم الجغرافيا في مصر، وعلى رأسهم الدكتور محمد عوض محمد[٢]؛ في عاطف

---

(١) الأنثروبولوجيا الثقافية في النوبة! ٢٨ ديسمبر ٢٠٢١.

(٢) الدكتور محمد عوض محمد (١٨٩٢-١٩٧٥م)، أستاذ الجغرافيا في كلية الآداب بجامعة القاهرة، حاز الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٢٦م. تولى إدارة معهد الدراسات السودانية، ثم عُيّن مديرا لجامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٣م، فمستشارًا في هيئة اليونيسكو سنة ١٩٦٠م. اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١م. له مؤلفات منها: نهر النيل، والاستعمار والمذاهب الاستعمارية، وسكان هذا الكوكب، وجغرافية السودان، ومن حديث الشرق والغرب: مجموعة مقالات. كما ترجم بعض مسرحيات شكسبير، وترجم عن الألمانية: هرمن ودروتيه، وفاوست، كلاهما لجوته. كتب رواية صدرت عام ١٩٤٣م بعنوان: (سنوحي)، وكان عضوًا في جماعة (أبوللو) الأدبيَّة. نال جائزة الدولة للعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٢م (انظر في ترجمته: الأعلام، لخير الدين الزركلي ٦/٣٢٠ دار العلم للملايين، والمقال المشار إليه للدكتور عاطف معتمد، وموسوعة: ويكيبديا).

معتمد منهجًا وكتابةً، ومما يؤيّد هذا القول أنه أفرد للأستاذ الكبير مقالةً مستقلّة تجمع الجغرافيا بالأدب، بعنوان: "لماذا يُحب الجغرافيُّون الأدب"، عرّف فيها بالرجل، وعلاقته بالأدب، وعضويّته لمجمع اللغة العربية، وصداقته لطه حُسين، إذ كان أول رئيس لقسم الجغرافيا بكلية الآداب التي كان أول عميدٍ لها وقتذاك.

كما إنه من الجدير الإشارة هنا إلى أنَّ للدكتور محمد عوض محمد (محاضرات عن فن المقالة الأدبية)، ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العليا العالية بجامعة الدول العربية، مطبوعة في كتابٍ بهذا العنوان سنة ١٩٥٩م[١]. ولا شكّ عندي كذلك في أن الدكتور عاطف معتمد قد رجع إلى هذا الكتاب مرارًا وأفاد منه.

لقد كان عاطف معتمد فخورًا بمنجز الأستاذ الذي أسس قسم الجغرافيا بكلية الآداب محمد عوض محمد[٢]، ومع أنه لم يتتلمذ مباشرةً له، فإنه نهل من مجاليْه اللذين نبغ فيهما: الجغرافيا والأدب. يقول في مقالته عنه: "كان محمد عوض محمد أيضًا مصباحًا منيرًا في الأدب واللغة، وبعضويته في مجمع اللغة العربية وغيره من المؤسسات الثقافية المصرية كان نبعًا لتلاميذه، سواء من درسوا على يديه أو من تبنَّوا مدرسته الأدبية واللغوية (ويعرف الناس من بين هؤلاء جمال حمدان)"[٣]. ولعلي أضيف على قوله: "وعاطف معتمد".

كان انشغال عاطف معتمد بالآثار الأدبية المصرية التي تتناول مصر المكان، بدافع جغرافيٍّ وفنّيٍّ معًا، فهو يستمتع بالأدب ويبحث عن الجغرافيا في

(١) محاضرات عن فن المقالة الأدبية، للدكتور محمد عوض محمد (معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٩م).

(٢) انظر مثلًا مقدمة الدكتور عاطف معتمد لنشرة كتاب نهر النيل، للدكتور محمد عوض (تحرير وتقديم عاطف معتمد، دار البشير للثقافة، القاهرة ٢٠٢٢م).

(٣) لماذا يحب الجغرافيون الأدب؟! ٢٥ أكتوبر ٢٠٢١م.

الأثر، ولذلك فإنَّ اختياراته الأدبية فريدة، تنبع من تُربة هذا القطر المصري العريق بمدخلاته الجغرافية الثريَّة، يقول: "لهذه الأسباب وجدتُ في نفسي دافعًا مشجعًا للاهتمام بما يُكتب في الأدب المصري عن الريف، وأحاول أن أتتبعه عند كل من توفيق الحكيم ويوسف إدريس وفهمي حسين وخيري شلبي وغيرهم، كما تابعت حديثًا بعض الأعمال المدهشة عند أسامة الرحيمي، وأخيرًا في الرواية التي صدرت قبل عامين للأديبة المبدعة سلوى محسن"(١).

لم تكن عناية كاتبنا بالريف فقط، بل امتدَّ إلى التضاريس المصرية الأخرى في بقاع المحروسة المتنوعة، وهذا يظهر من المجموعات القصصية والروايات التي تناولها أو عرض لها في مقالاته، ويكفي أن نسوق عناوينها حتى نعلم ما فيها من التنوع الجغرافيّ الذي ينعكس من هذه الأعمال: ميرامار لنجيب محفوظ(٢)، الشمندورة لمحمد خليل قاسم(٣)، واحة الغروب لبهاء طاهر(٤)، مناسك الخوف لسلوى محسن(٥)، ليالي المسك العتيقة لحجاج أدول(٦). فساد الأمكنة لصبري موسى(٧).

الشِّعْر والغِناء:

يربط كاتبنا الغناء بالشعر بالجغرافيا، فهو ينصت دومًا إلى الأشعار التي لها ظلالٌ جغرافية، فصيحةً كانت أو عامّيّة.

(١) انظر: صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١.

(٢) انظر: الإسكندرية... مرآة البحر! ١٠ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) انظر: الشمندورة! ٢٢ نوفمبر ٢٠٢١.

(٤) من كرداسة إلى سيوة! ١٩ ديسمبر ٢٠٢١.

(٥) صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١.

(٦) الأنثروبولوجيا الثقافية في النوبة! ٢٨ ديسمبر ٢٠٢١.

(٧) الأنثروبولوجيا الثقافية في النوبة! ٢٨ ديسمبر ٢٠٢١.

فمن الشعر الفصيح قصيدة النهر الخالد لمحمود حسن إسماعيل، حيث وقف على بيتٍ من أبياتها التي غناها عبد الوهاب، متذوّقًا ناقدًا نقدًا فيه من اللطف والتميُّز ما فيه حيث يفسّر الشعر بالجيولوجيا، وقد جعل عنوان المقال شطر بيتٍ من القصيدة: (شابتْ على أرضه الليالي)، يقول: "... أما الأستاذ الثاني فكان شاعرًا أديبًا جمع إلى جانب عمقه الجغرافي رسالة ثقافية إنسانية، وهو أحمد عبد العال (الأستاذ بجامعة الفيوم) الذي كتب مقالًا في الأهرام قبل ثلاثة عقود يربط فيه بين الجغرافيا والأغاني والأشعار. وقد وقع اختيارُه في هذا المقال على رائعة محمود حسن إسماعيل (١٩١٠–١٩٧٧) التي شدا بها عبد الوهاب في "النهر الخالد". في واحدٍ من أبيات هذه القصيدة يقول الشاعر واصفًا نهر النيل "شابت على أرضه الليالي.. وضيَّعتْ عمرها الجبال". والحقيقة أن الشاعر وقف على حقيقة جيولوجية أكيدة وهي قدم أعمار الصخور التي تحيط بنهر النيل في رحلته الطويلة التي اخترق خلالها أقدم صخورٍ ليس فقط في حوض النيل، بل أقدم صخور في القشرة الأرضية"[١].

وفي سياق ولعه بالنوبة يكتب مقالًا ذا عنوان مقتبسٍ من قصيدة الشاعر عبد الرحمن الأبنودي، وهي قصيدة مستلهمة من السيرة الهلالية، غناها المطرب ذو الأصول النوبيَّة محمد منير، وعنوان المقال ومطلع القصيدة: (يونس في بلاد الشوق)[٢].

يمضي الكاتب الناقد في هذا المقال محلّلًا الأغنية والقصيدة معًا بهذا المزج العجيب لنوعين من الفنّ: "كان الصوت يأتي من شابٍّ يسير بخطواتٍ نشطة نحو غرود الرمال ويسحب خلفه جملًا أشهب اللون، وفوق الجمل

(١) شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.

(٢) يونس في بلاد الشوق! ١٩ نوفمبر ٢٠٢١.

المتهادي تجلس بسعادةٍ طفولية غادةٌ أوروبية، شقراء هيفاء، ترتجُّ صحةً وجمالًا. جاء صوتُ منير نقيًّا بِلوريًّا في عزف منفرد من دون موسيقى، وكان يعلو بصوته فترتدُّ الكلمات من بين الصخور البركانية والجرانيتية لا سيما حين أتى إلى المقطع الشهير: "يونس.. أنا يونس.. ونسيت مِن يونس.. والدنيا مالت عليّا". مددتُ الخطا كي ألحق بمنير عند الغرود الهابطة من الصحراء الغربية، تريد أن تردم مياه النيل عند صخور بربر. وحين أصبحنا وجهًا لوجه، وتفحّصت صاحب الصوت البلوري لم أجده منيرًا الذي يقترب من السبعين عمرًا بل شابًّا في الثلاثين كأنه منير في أوج الشباب، متطابقٌ في الصوت والقامة والشعر المفلفل".

ثم يمتدُّ في التحليل بين السيرة الهلاليّة والأغنية ممسكًا بخيوطه النقدية المتشابكة بإحكامٍ بليغ، بحيث يعزف لحنًا نقديًّا فريدًا لَوّنه بأصواتٍ أتتْ من أوديةٍ مختلفة، يقول: "اتخذ شاعرنا المبدع الراحل عبد الرحمن الأبنودي من جمع تراث السيرة الهلالية مشروعه في الحياة، ونجح في ذلك، واقترن بها واقترنت به السيرة الهلالية. تجاوز الأبنودي السياسة والعقائد والمذاهب واتخذ من قصة حب يونس وعزيزة بنت السلطان حكايةً لواحدة من أشعاره الغنائية التي شدا بها محمد منير: "يونس في بلاد الشوق". الذين يسمعون الأغنية لا يعرفون بالضرورة ملحمة السيرة الهلالية، ولذلك تبدأ الأغنية بعزف منفردٍ لا يستطيعه سبيلًا إلا صوت منير الحُرّ حين تقول الكلمات:

"جاي من بلاد بعيدة، لا زاد ولا ميّه،
وغُربتي صاحبتي بتحوم حواليّا
وانتي تقولي لي "أحبك"
.. تحبي إيه فيّا؟
دا حب إيه دا اللي من غير أي حرية؟!"

ثم يعلن يونس عن أزمة الغربة التي تفطر القلوب حين يقول مجددًا:

"أنا يونس.. ونسيت من يونس، والدنيا: مالت عليّا!"

ولأن يونس أمضى سبع سنوات عجاف في الأسر بعيدًا عن الوطن في الجزيرة العربية فإنه وإن كان قد أحبّ الأميرة بنت السلطان إلا أن قلبه بقي منشطرًا فنجد الأبنودي يكتب ومنير يشدو قائلًا:

"قلبي ضايع مين يلاقيهْ لي

باينّي نسيته حدا أهلي

.. ينفع أحبك من غير قلبي؟!"(١).

يأخذنا عاطف معتمد في جولاتٍ شعريَّة يختارها بذائقةٍ فنّية رفيعة من أشعار شعراء العامية كأمين حدّاد(٢)، أو من أشعار شعراء برعوا في الفصحى ولكنّهم كتبوا بالعامية نادرًا كأحمد شوقي أمير الشعراء، إذ التقط كاتبنا قصيدةً جغرافيَّةً له –على حد فلسفته– قالها بالعامية المصريَّة، وهي قصيدته التي غناها عبد الوهاب: (النيل نجاشي)، وهو عنوان مقاله الذي مضى فيه ينقد القصيدة نقدًا باذخًا حين يصله بشُعَبٍ مختلفة من اللغة والشعر والغناء، والجغرافيا، نقتبس منه قوله:

"هذا عنوان أغنية قديمة لمحمد عبد الوهاب، الأغنية قليلة الكلمات متراقصة الألحان تبدأ بتمهيد لإيقاع موسيقي متسارع يسلم الساحة فجأة في صمت مقدس لصوت عبد الوهاب الذي يغرّد منفردًا في حالة من السلطنة الكاملة وهو ينطق كلمة "نجاااااشي"... وصف النيل بالنجاشي هنا هو معرفة أصيلة بمعنى الكلمة في اللغة (الجَعْزية) أو الحبشية والتي تعني فيها الكلمة "حاكم أو "ملك". يدهشنا أن كلمات هذه الأغنية العامية من تأليف أمير الشعراء أحمد شوقي الذي تعلَّمنا منه شعر الفصحى الصعب البليغ .

(١) يونس في بلاد الشوق! ١٩ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) على كوبري عباس! ٣٠ نوفمبر ٢٠٢١.

... يتغزل شوقي ويتسلطن عبد الوهاب بأن النيل يعزف لحنه ممسكًا بـ "أرغوله" في يده. للوهلة الأولى سنظن أن "أرغول" كلمة أوروبية من العهد الملكي زمن أشعار شوقي. لكن الأرجح أن هذه الآلة هي نفسها الآلة المصرية القديمة التي بدأت بالناي المصنوع من البوص وتنتهي اليوم بالمزمار في الصعيد... مع كلمات شوقي وأداء عبد الوهاب (المتسلطن بأجواء ملكية) نرى النيل النجاشي "حليوه واسمر" يمرح في أرض كلها "دهب ومرمر" في تعبير عن طبيعة الجيولوجيا التي يخترقها النيل من أراضٍ عامرة بالذهب كما في شمال السودان وجنوب مصر وأراضٍ أخرى بها من المرمر البديع...

في الشطر الثاني من أنشودة "النيل نجاشي" يأخذنا شوقي وعبد الوهاب في نزهة رومانسية بمركب مع فلايكي يشدو بصوت ملايكي فيطلب الشاعر أن يأخذه ريس المركب برفقة حبيبته في رحلة عبر النيل مخاطبًا إياه بقوله: "صلح قلوعك يا ريس"، صلح قلوعك يا ريس عبارة تعني الكثير، تتجاوز التفسير الحرفي وتدعوك لسماع الأغنية مرات ومرات. السؤال اليوم: هل ما زال النيل نجاشي؟"[1].

السِّينما:

يأتي ذكر السينما على سبيل التناص والتلاعب اللفظي في بعض عناوين المقالات، وأحيانًا يرد فيها بصورة تحليلية مقتضبة يعرضها المقال.

ورد هذا التناصّ في نحو مقال بعنوان: "الإسكندرية... الحضارة في العمارة"[2]، ليستحضر إلى الذاكرة فيلمًا عُرض منذ سنوات اسمه: (السفارة في العمارة).

(١) النيل نجاشي! ١ ديسمبر ٢٠٢١.

(٢) انظر: الإسكندرية... الحضارة في العمارة ١١ ديسمبر ٢٠٢١.

ونجده كذلك في مقالٍ بعنوان: "حفل زفاف في ضواحي باريس!"[١]، وهو يستدعي إلى الأذهان الفيلم السينمائي: "زوجة من باريس".

ومن فيلم (الرصاصة لا تزال في جيبي) عن قصة إحسان عبد القدوس، أخذ كاتبنا عنوان مقاله: "رصاصة واحدة في جيبي!"[٢].

نجد أيضًا تحليلًا لرواية (ميرامار)[٣] التي تحولت إلى فيلم سينمائيٍّ بالعنوان نفسه فيما بعد، يقول الكاتب: "لا يمكننا فصل ما هو طبوغرافي عما هو اجتماعي، وما هو تاريخي عما هو أدبي وفلسفي. فعند هذا الساحل القوسي في حي الرمل بغرب الإسكندرية استلهم نجيب محفوظ قبل ٥٠ سنة الحبكة الدرامية لروايته التي تحولت فيلمًا سينمائيا فيما بعد".

ثم لا يترك المقال من غير وضع بصمته الفنيّة ها هنا في التفريق بين الفنّين الروائي والسينمائيّ من خلال ملحوظةٍ دقيقة: "وعلى خلاف أعمال محفوظ المبدعة، فإن أول ٢٠ صفحة في الرواية لا تشجع على إكمال القراءة، وهي المشكلة التي تداركها الفيلم حين جعل من دلال وجمال الفلاحة زهرة (شادية) مادةً لجذب الأنظار وتعليق أعين المشاهد بشخصية ذات دور ثانوي في الرواية الأصلية، لكنها تصبح بطلة الفيلم الذي بالطبع يغازل الجمهور"[٤].

وفي تذييل له على أحد المقالات، وضع الكاتب إضافةً تدل على استفادته مما يُتاح له أو يتذوّقه من الفنون كالسينما، حيث قال: "عنوان هذا المقال "الإسكندرية مدينتنا" مستوحًى من مشهد وثائقي استعان به يوسف شاهين في أحد أفلامه عن الإسكندرية. في هذا الفيلم يقف هتلر مسحورًا مغرورًا بالنصر الذي

(١) انظر: حفل زفاف في ضواحي باريس! ١١ أغسطس ٢٠٢٠.

(٢) انظر: رصاصة واحدة في جيبي! ٦ أكتوبر ٢٠٢١.

(٣) انظر: الإسكندرية... مرآة البحر! ١٠ نوفمبر ٢٠٢١.

(٤) الإسكندرية... مرآة البحر! ١٠ نوفمبر ٢٠٢١.

حققته جيوشه في الحرب العالمية الثانية حين اكتسحت الساحل الشمالي الغربي لمصر قادمة من ليبيا، وزحفت على الدلتا بجيوش مهيبة وصارت على مرمى حجر من منخفض القطارة وعلى بُعد ١٠٠ كم من الإسكندرية. وحين وقف الجيشان الألماني والإنجليزي وجها لوجه في المعركة الفاصلة "العلمين" حبس الجميع أنفاسهم، وخطب هتلر في جموع الشعب الألماني محفزا جنوده وقادته وقال عبارته الشهيرة: "الإسكندرية مدينتنا!" (١).

جـ- النَّقدُ الاجْتماعي:

لعل أهم غايةٍ من غايات الكتابة الصحفية –التي هي أم فنّ المقالات– النقد بمفهومه العام، وهذا النقد يمسّ الجماهير القارئة في شؤونها المختلفة. فالمقال فنٌّ اجتماعيٌّ باقتدار، من الجمهور ينبع وإليه يعود. وكاتبنا ناقدٌ لأحوال مجتمعه المصريّ من حيث أنّ النقد وسيلةٌ للتصحيح والبناء، وهذا ما نود أن ندلّل عليه من خلال مقالاته.

يشترط الدكتور زكي نجيب محمود في كاتب المقالة أن يكون "ناقمًا"، وأن يكون مع ذلك ذا تفكُّهٍ جميلٍ حُلْو، يقول: "شرط المقالة الأدبية أن يكون الأديب ناقمًا، وأن تكون النقمة خفيفة يشيع فيها لونٌ باهت من التفكُّه الجميل؛ فإن التمستَ في مقالة الأديب نقمةً على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها، وإن افتقدت في مقالة الأديب هذا اللون من الفكاهة الحلوة المستساغة فلم تُصبه، فاعلم أنَّ المقالة ليست من الأدب الرفيع في كثيرٍ أو قليل، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة"(٢).

(١) الإسكندرية.. مدينتنا ٨ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ص٩.

إنَّ المقصود بالنقمة في هذا السياق: الانتقاد والضيق من وضعٍ ما، وأما التفكُّه فلا يقتصر على الفكاهة التي نعرفها، بل المقصود بها: الكتابة المتفنِّنة المسلّية للنفس، بأي سببٍ من أسباب التفكُّه والتسلية كان. وعلى هذا أمثلةٌ لا تعد ولا تُحصى يستطيع قارئ المقالات أن يقف عليها في كل مقالةٍ من مقالات عاطف معتمد تقريبًا.

يناقش الكاتب طائفةً من المعضلات الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع المصري مما له تعلق بالجغرافيا بمفهومها الواسع: المادية والبشرية، وهو مفهومٌ نادى به صاحب المقالات، منكرًا أن تكون الجغرافيا عِلمًا جامدًا لا تعلق له بالإنسان وقضاياه وحاجاته، وقد عبَّر عن هذا بقوله: "ومنذ منتصف القرن العشرين، ومع ظهور حقبة ما بعد الاستعمار، انتبه نفر قليل من علماء الجغرافيا إلى الدور الإنسانوي لهذا العلم، وراقبوا ضمائرهم في أن هذا العلم في حقيقته هو علم تفتيش عن مواطن الخلل الاجتماعي في توزيع الثروة والخدمات والسكان والرفاه والتركز السكاني والفائض والعوز...إلخ"(١). ويكتب في مقالةٍ أخرى له: "تشتبك الجغرافيا –شاءت أم أبت – مع السياسة والاقتصاد وتقييم الثروات المائية والمعدنية والخرائط وما تحويه من تفاصيل وطنية. وما لم يحدث ذلك فسيكون لدينا مهنيون في الجغرافيا، والمهني هو الذي يتخذ الجغرافيا مصدر رزقه ومحل وظيفته، ينتج أبحاثا صامتة ويعيد ترديد مقولات قديمة أو ترجمة أفكار أجنبية، حديثة نعم، لكنها آمنة ومأمونة غير متقاطعة مع الواقع وتحدياته"(٢).

من المشكلات التي أولى لها اهتمامًا: مشكلة القبح والتشوه العمراني، وانتشار القاذورات بين الأحياء والمجتمعات السكانية، ومشكلة التكدس السكاني،

(١) الإسكندرية توقظ الحس اليساري في الجغرافيا! ٧ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) لماذا يحب الجغرافيون الأدب؟! ٢٥ أكتوبر ٢٠٢١.

ومشكلة انحسار الرقعة الزراعية. نراه يعرض لهذا بإجمالٍ في مقالٍ له يخص به مدينة المنيا، يصف فيه المشكلة على هذا النحو: "ورغم ما تشهد "إلمينيا" من تطوير محاور للحركة وكباري علوية وطرق أسفلتية إلا أن القبح يزحف عليها لتردي خدمات النظافة، والتكدس السكاني المنفلت، وابتلاع العمران للأرض الزراعية"(١).

وينحو نحوًا يثير الدهشة حين يجعل وجود الآثار الفرعونية سببًا لبعض الآفات المجتمعية الخطيرة في كثيرٍ من مدن الصعيد: "كلما تجولت في قنا عامًا بعد آخر أستحضر فكرة تشاغلني من فترة وهي أن الآثار الفرعونية تحولت من نعمة إلى نقمة في نمو المدن المصرية في وادي النيل. ومن تجليات لعنتها أنها ساهمت في انهيار مدن عديدة مثل قفط وقوص وشنهور و"هِوْ" وغيرها، نتيجة توسط تلك الآثار قلب المدينة فتجمعت المساكن وتكدس الازدحام وتراكمت الأسواق وتجمع الصرف الصحي ومكبات النفايات حول المواقع الأثرية حتى دمرتها وقضت عليها"(٢).

لكن كاتبنا كثيرًا ما لا يترك قارئه يعثر بالمشكلة من غير أن يُقيل عثاره ببعض المقترحات: "في المنيا إمكانات عظيمة، تحتاج [إلى] عمل فعال على مستوى المحليات، ورعاية للتعليم، وتغيير للسلوك المجتمعي ببرامج تعليم وثقافة مكثفة. ليس في الأمر صعوبة، أهل المنيا من أكثر الناس استعدادًا للتعليم والتطور ومن أرقهم لينًا وأكثرهم حلمًا وأدبًا وكرمًا"(٣).

ومن تلك المشكلات الاجتماعية: مشكلة الفوضى واختلال النظام، كتلك التي كان يشهدها عند مقام السيد القِنائي، ولكنه أبدى سعادته بإزالتها: "لم أسعد

(١) ضحية المواقع الوسطى! ١٠ يناير ٢٠٢١.

(٢) قنا... افتراق الطرق وتلاقيها! ٢٧ يناير ٢٠٢١.

(٣) ضحية المواقع الوسطى! ١٠ يناير ٢٠٢١.

أبدًا في كل الزيارات السابقة إلى "السيد" (يقصد عبد الرحيم القنائي) بمثل سعادتي أمس، صحيح أنني حرمت من الاستماع إلى بعض مدائح وتواشيح نبوية كما في آخر زيارة قبل عامين لكني سعدت باختفاء المشاهد التي تعكر صفو المكان من افتراش مئات الناس باحة المسجد ما بين متسول ومتدروش وطالب دعاء وضوضاء أكشاك بيع الطعام المجاورة. كنت على يقين أن ذلك كله لم يكن يُرضي "سيد" قنا أو يعجبه"[١].

ومن هذه المشكلات: تلوث المياه العذبة، وشحاحتها، يقول: "تخيل أن سكان كفر الشيخ يعانون مثلا من ضعف المياه الواصلة ومن تلوثها وشحها لأنهم في آخر رحلة النهر بعد أكثر من ألف كم قطعها النهر من أسوان إلى البحر المتوسط وقد ألقى في مياهه "كل من هب ودب" بملوثات وأخطار تفسده كما وكيفا وتضيف إلى مكوناته كل السموم الناقعات الناجمة عن عشوائية النمو الحضري والتوسع الريفي من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير ..."[٢].

كذلك ناقش معضلةً أخرى يعاني منها المجتمع المصري، ألا وهي البناء العشوائي، وقد جعلها على نوعين: مخطط له وغير مخطط له، وهذا التقسيم كاشف في الحقيقة، يكتب: "التناقض الذي نعيشه هو أن النمو العمراني العشوائي (المخطط وغير المخطط على حد سواء) بدلًا من أن يكلف نفسه مشقة الصعود إلى الأماكن المرتفعة إذ به "يستسهل" ويبني في مخر السيل وبطن الوادي استنادًا إلى أن الوادي نائم ولن يصحو من غفوته الطويلة. وستدهش أن بعض الأحياء السكنية التي تبنى حاليا في الصعيد في عام ٢٠٢١ (ومنها في قنا على

(١) كوفيد – ١٩ ينقذ "السيد"! ٢٤ يناير ٢٠٢١

(٢) أسوان...الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

سـبيل المثـال) اختـارت مخـرّات السـيول وبطـون الأوديـة مقصـدا وهـدفا للنمـو العمراني"[١].

ومشكلةٌ أخرى تليدة في القطر المصري، الاهتمام بالمدن الكبرى وعواصم المحافظات على حساب القرى والمدن الصغيرة، فهو يقترح بعض الحلول بعد كارثة السيول بأسوان على هذا النحو: "الاهتمام "بمحافظة" أسوان وليس "مدينة" أسوان. ذلك لأن المحافظة تشمل البلدات والقرى الأكثر عرضة للخطر والممتدة شرقًا وغربًا بين الصحراوين الشرقية والغربية، وشمالًا وجنوبًا بين الأقصر وخط الحدود مع الأشقاء في السودان. أنا لا أحب مدينة أسوان وحدها، بل أسوان كلها: أبو الريش، الخطارة، الأعقاب، الجعافرة، دراو، وكوم أمبو.. وعشرات أخرى من البلدات والقرى".

ويتفرع منها: مشكلة تنميط مدن الأقاليم وتشابهها في التخطيط، وتنظيمها على مثال الأحياء الشعبية في المدن الكبرى، وهذه مشكلة عمرانية خطيرة تعكس صورةً لمشكلة اجتماعية تتعلق بالإنسان المصري لا شك: "التركيب الداخلي للدلنجات لا يحمل شيئا مميزًا، الشارع الرئيسي يشعرك أنك في بولاق أو إمبابة في القاهرة وربما نسخة من الشارع الرئيسي في مدينة مطاي في محافظة المنيا. لا عجب، فكل القرى والبلدات المصرية صور مستنسخة لا إبداع فيها"[٢]. وهذه خلاصة جغرافية إنسانية، فيها من الأسى ما فيها.

يرصد مشكلةً متفشّيةً أخرى تمس قطاعًا عريضًا من المصريين، بل ربما مسّت عامة الشعب: مشكلة حجز البحر والنهر عن جموع الشعب، ثم يوضح ما لها من أثر نفسيٍّ على أفراد المجتمع قد يودي بروحانيّته وأمله في يوم غد، وهذا

(١) أسوان...الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) مسافر إلى الدلنجات! ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠.

النحو من التفسير للظاهرة ونتائجها أقرب إلى نهج التصوف منه إلى العلم التجريبي، ولكنه مع ذلك دقيق المعنى يمسُّ النفس البشريَّة: "إن إغلاق النهر والبحر والبر بأسوار يعيش فيها الأثرياء دون الفقراء لا يتسبب في مشكلة اقتصادية واجتماعية قصيرة الأمد فحسب، بل يقتل فكرة مهمة جدًّا نجهلها وهي فكرة "اللانهاية". انظر حولَك، كل شي يقول لك إن لكل شيء "نهاية" وأنه لا يوجد أمل، ولا يوجد أفق، وأنك لا تعرف ماذا يجري "وراء الأسوار" ولا يحق لك ان تعرف، ولا يجب أن تفكر في أن تعرف. هل هذه الأسوار رسالة مبطنة بأنك تعيش داخل سجن أو أنك قريب من السجن جدا!"[١].

وثَمَّ مشكلةٌ أخرى رآها تنمو وتتوغل مع توغل مجتمع (الكومباوندز) في مجتمعنا، وهي مشكلة غزو اللغة الإنجليزية لمجتمعنا، والاستعاضة بها عن اللغة العربية، وما له من ضرر حضاري[٢].

يلحق بالنقد الاجتماعي لدى الدكتور عاطف معتمد بعضُ أنواع النقد الأخرى، كالنقد التاريخي كما في مقالة: "مئذنة بلال"[٣] حول معنى كلمة (إثيوبيا)، أو النقد الجغرافي حين يشير إلى أن خرائط قنا القديمة أجود من الحديثة: "هل قلت إن القديم أفضل من الحديث حتى في الخرائط.. هل يجوز هذا؟!)"[٤]. ولكنّ هذه الأنواعَ الأخرى استثناءٌ يؤيّده كثرة الأمثلة على ميله إلى النقد الاجتماعي في مقالاته، وهذا الأقرب إلى المساس بأحوال المجتمع الذي يكتب لأفراده وقُرّائه.

(١) الإسكندرية توقظ الحس اليساري في الجغرافيا! ٧ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) العمر الافتراضي لكلمة الـ Re ٩ سبتمبر ٢٠٢١.

(٣) مئذنة بلال! ١١ فبراير ٢٠٢١.

(٤) قنا...افتراق الطرق وتلاقيها. ٢٦ يناير ٢٠٢١.

ثانيًا: التَّشْكيلُ الفَنِّي

حَجْمُ الـمَقالة:

للحجم علاقةٌ بإقبال القرّاء على القراءة، فسواد الناس لا تنشط لقراءة المطوّل من الكلام. وللحجم علاقةٌ أخرى بخصائص الكتابة لدى الكاتب، فالكاتب المطيل مختلفٌ في سماته عن الكاتب المختصر، وهما مختلفان عن المعتدل في الكتابة.

ولكنْ ما الحجم المعتدل أو المتوسط في الكتابة؟ ربما لا يمكن تصور (مقالٍ) في أقلّ من ٦٠٠ أو ٧٠٠ كلمة[١]، وإلا يغدو خاطرةً أو نحو ذلك. نعم هناك مقالاتٌ قصيرةٌ كثيرةٌ لدى عاطف معتمد في هذه الحدود، ولكنه إن قلَّ الحجم عن ذلك فإنه لا يبنيه على هيئة المقال، بل يكتبه على أساس أنه فائدةٌ أو خاطرةٌ أو منشور، فلا يتوخَّى فيه الأصول الفنّيّة التي نراها في مجمل مقالاته، بل يكتب بصورةٍ مباشرة وتقريرية.

لقد وضع عاطف معتمد حدًّا واضحًا لطول مقالاته لا تتجاوزه هو ١٠٠٠ كلمة يعدُّها حاسوبيًّا عدًّا؛ دليلُنا على هذا قوله في إحدى مقالاته: "عذرًا.. تجاوزت هذا الصباح الألف كلمة بعشرين كلمة!"[٢]. ويقول في أخرى بصورةٍ قاطعة: "ها هو عداد الكلمات في الحاسوب يخبرني أنني أقترب من ١٠٠٠ كلمةٍ ولم أصل إلى طريقة العلاج، ولم أبيّن كيف يمكن أن تغرق الإسكندرية وكيف نحميها؟ دعونا نكمل غدا بإذن الله!"[٣]. ومع هذا فليست الأرقام بحدٍّ لازب لا يمكن تجاوزه بقليل إن احتاج إليه الكاتب، فمثلًا هناك مقالةٌ بلغت (١١٢٥

(١) مثلًا: مقاله: قنا... افتراق الطرق وتلاقيها ٢ (٧ يناير ٢٠٢١) في ٦٢٣ كلمة، ومقاله: لماذا يحب الجغرافيون الأدب؟! (٢٥ أكتوبر ٢٠٢١) في ٦٢٦ كلمة.

(٢) الشمندورة! ٢٢ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) هل تختفي إسكندريتنا؟! ٦ نوفمبر ٢٠٢١.

كلمة)[١]، ولعلها أطول المقالات في هذه السنة (٢٠٢١م محل الدراسة)، وهذا الخروج العددي يؤكّد الحكم ويثبّته.

وحتى إن لم يستوفِ موضوعَه في مقاله فإنه يتوقّفُ عند هذا الحد كذلك، كتب مرةً: "ها هي مساحة المقال تنتهي ولم أكتب كل ما في نفسي عن قنا الثرية بالجغرافيا والتاريخ ذات الروح الأصيلة الفريدة"[٢].

بهذا إذن يتبيّن لنا أن مقالة عاطف معتمد مقالةٌ خفيفة رشيقة، متوسطة لا طويلةٌ ولا قصيرة، مع أنها إلى القصر أميَل؛ وذلك إذا وضعنا في اعتبارنا أن بعض المقالات القديمة في المجلات كان تمتد حتى تصل إلى ٢٠ صفحة[٣]! ولكن مقالات عاطف معتمد مع هذا القصر –أو قل الخفة المحمودة– وافيةٌ بالغرض المراد نشره، تامّة الموضوعات؛ فإذا لم تستوعب مقالةٌ واحدةٌ فكرتَه العامّة التي يريد إيصالها جعلها سلسة مقالاتٍ في الموضوع نفسه، وهذه السلسة من المقالات مع ذلك لا تتكاثر، إذ يكتفي بمقالتين أو ثلاث[٤]، أي أنها في مجموعها تُشبه المقال الطويل الذي يكتب في نحو عشر صفحات.

إنَّ هذا المقدار مناسبٌ جدًّا لقراء هذا النوع من الأوعية الرقميَّة؛ وفي ظني أنه لو زادت عن ذلك لأملّت أو لنفر عنه طائفةٌ ضخمةٌ من قرّائه؛ فهذا اختيار ذكيّ لحجم المقالة من الكاتب، يَنِمُّ عن تفكيرٍ عميق، أو عن خبرةٍ قديمة في مجال الكتابة للجماهير.

(١) الإسكندرية... الحضارة في العمارة ٢٠٢١/١٢/١١.

(٢) قنا...افتراق الطرق وتلاقيها (٢) ٢٦ يناير ٢٠٢١.

(٣) فن المقالة، للدكتور محمد يوسف نجم ص٥١.

(٤) مثل مقالاته عن مدينة الإسكندرية، وعن أسوان، وقد أشرنا إليها كثيرًا في الهوامش.

العُنْوان:

يـرى بعـض البـاحثين أنَّ العنـوان نـصٌّ مـوازٍ[١]، أي مـن ملحقـات الـنص ومصـاحباته، ولا أراه كذلك فـي هذا العصر، إذ هو –فـي رأيـي– جزءٌ أصيلٌ من الـنص، وقطعـةٌ لا يمكـن اجتزاؤهـا مـن المـتن، ولـيس مـن الصـواب فيمـا أرى أن نحكـم بملحقيّتهـا علـى الـنص، إذ لا تمكـن مقارنتـه بالصـور أو الخـرائط، أو الرسومات الملحقة؛ لا يمكن إذن فصل العنوان عن مقاله.

ولعل العنوان قد نشأ في فنّ المقالة في العصر الحديث بتأثيرٍ صحفيّ، حتى لو انتقل قالب الكتابة من الورق إلى القالب الإلكتروني، ما دام صاحب الكتابة قد قصد إلى كتابة (المقال)؛ إذ كان لزامًا أن يضع الكاتب عنوانًا لمقالته إن أراد نشرَها في الصحافة[٢]. وقد أثبتنا أن الدكتور عاطف معتمد كان يتعمّد أن يسكب أفكاره في قالَب المقال، ولا يُهشنا أن نعلم بعدُ أنه قد تلقّى تدريبًا على الكتابة الصحفية في مرحلةٍ ما من حياته مثلما أشار في بعض مقالاته.

العنوان أهمُّ مدخل عُني به كاتبنا، وأولاه اهتمامه، لا نريد أن نبالغ فنقول إنه أكبر شيء تظهر فيه الصنعة في هذه المقالة، فهو يجهّزه ويحتشد له كما لا يصنع مع بقية أجزاء مقاله، وإن كان يصنع ذلك في بقية الأجزاء؛ غير أننا نلمس في عنوانه عملًا فنّيًّا خاصًّا، حتى لقد يمكن القول إنّ العنوان أبرز العلامات الدّالة على مقال عاطف معتمد.

وهذه الفنّيّة الدقيقة في إعداد عنوانه تتلوّن بألوان جاذبة، فمن حيث الصياغة حريصٌ هو على الإيحاء والرمز، بغض النظر عن طول العنوان

(١) انظر: في التعالي النصي والمتعاليات النصية، لمحمد الهادي المطوي ص ١٩٦. وانظر الدراسة الخاصة بالنص الموازي بعدُ في هذا البحث.

(٢) انظر: العنوان في الأدب العربي: النشأة والتطور، للدكتور محمد عويس ص٧–٨ (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١/١٩٨٨م).

أو قصره، وإن كنا لا نرى حشوًا أو طولًا مستكرهًا في عنوانيه، بل يغلب عليها الإيجاز والاقتصاد. ومن حيث الإدهاش والإغراء فقل في هذا ما شئت؛ إذ كثيرًا ما يقودك الفضول إلى قراءة فحوى مقاله بسبب عنوانه، يتخذ هذا الإدهاش من حوادث الوقائع اليومية سبيلًا، أو من الإغماض سبيلًا، أو من الاقتباس من شعرٍ أو أغنية أو رواية أو فيلم سبلًا أخرى، وهلمَّ جرًّا.

فمثلًا نرى في "الباب انشال" عنوانًا يوهم بالعامية في مقاله عن واحة سيوة، ولكنه ليس كذلك؛ فهو يفسّر بعد قليل كلمة "انشال" هذه المعروفة عندنا في الدارجة بقوله: "كان هذا الباب وما يزال يحمل اسم "الباب إنشال"، وهو اسمٌ مؤلَّفٌ من كلمتين عربية وبربرية، ويعنى: "مدخل البلدة" أو "باب البلد" ويقع هذا الباب على الجانب الشمالي من البوابة المطوقة للبلدة"[١]. وهذه الطريقة تعتمد على عنصر المفاجأة اللغوية، وفيها تصحيحٌ لبعض المفاهيم التي من الممكن تكون قد استقرّت وهي مغلوطة. إن عنصر المفاجأة لا يفيد في المتعة المعرفيّة فحسب، بل يثبّت المعلومة التي أراد إيصالها الكاتب على أحسن ما يكون، وهذه غاية الكتابة النبيلة: العلم مصحوبًا بالمتعة والبهجة بمعرفته.

"هل تختفي الإسكندرية كما توقع رئيس وزراء بريطانيا؟!"[٢]، "كوفيد – ١٩ ينقذ "السيد !"[٣]، مثالان على عناوين يومية مواكبة للأحداث أو الأخبار التي يقرأها الناس، وهذا مهمٌّ جماهيريًّا حتى يستشعر القرّاء أن كاتبهم غير منفصل عن الواقع، وغير خافٍ السمة الصحفية في هذه الصياغة.

(١) الباب انشال! ٢٢ ديسمبر ٢٠٢١.

(٢) هل تختفي الإسكندرية كما توقع رئيس وزراء بريطانيا؟! ٥ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) كوفيد – ١٩ ينقذ "السيد"! ٢٤ يناير ٢٠٢١.

"أحدث مجلد عن جيولوجية الفانيروزي وموارده الطبيعية في مصر"[١]، عنوان طويل ولكنه ترويجي إعلاني. " كتاب الدراسات، صفحة ٤٥: الصف الرابع الابتدائي!"[٢]، عنوان غير تقليديّ، كأنه عنوان بيت أو عنوانُ مكان الخطأ الذي يريد تصحيحه، وهذا العنوان على طوله طريفٌ وغير مستهجن، ومثيرٌ للاستغراب والانتباه معًا. ومن العناوين الطويلة التفصيلية الطويلة كذلك: "الباشا يراقب الإسكندرية بفاصل ٤٠ دقيقة!"[٣].

وهناك نوعٌ آخر من العناوين الباعثة للفضول، مثل العناوين المبهمة التي تحتاج إلى تفسيرٍ لن يجده القارئ إلا من خلال المقال، فيُضطر لقراءته كي يُشبع فضوله، مثل: "صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف!"[٤]. وربما يدخل فيه هذا العنوان السؤالي المثير للفضول: "أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟"[٥]، ومثله في التشويق: "العمر الافتراضي لكلمة الـRe "[٦].

"الإسكندرية... الحضارة في العمارة"[٧] عنوان رامز، ومعارضة سجعيَّةٌ لا تخفى لفيلم: (السفارة في العمارة)، وهنا تتماهى الأشكال الفنية بين السينما، والمقالة؛ في مزيج فريد متميز، من خلال هذه الصياغة السهلة الموقّعة. وبمثل هذه الصياغة الشعبية يضمن الاتّصال السريع والسمْح بالجمهور العريض، بمختلف أطيافه، فهناك قطاعٌ عريضٌ منه قد شاهد الفيلم أو قرأ أو سمع عنه،

(١) أحدث مجلد عن جيولوجية الفانيروزي وموارده الطبيعية في مصر، ٣٠ ديسمبر ٢٠٢١.
(٢) كتاب الدراسات، صفحة ٤٥: الصف الرابع الابتدائي، ٢٩ نوفمبر ٢٠٢١.
(٣) الباشا يراقب الإسكندرية بفاصل ٤٠ دقيقة! ٦ سبتمبر ٢٠٢١.
(٤) صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١.
(٥) أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟ "١٨ مارس ٢٠٢١.
(٦) العمر الافتراضي لكلمة الـ Re9 سبتمبر ٢٠٢١.
(٧) الإسكندرية... الحضارة في العمارة ١١ ديسمبر ٢٠٢١.

فأيّده أو عارضه أو اتخذ موقفًا ما تجاهه، كل هذا لا يعنينا الآن إنما تعنينا قدرة المؤلف ومهارته المبدعة على اجتذاب قُرّائه إلى مقاله، ثم التعبير الموحي بما وراءه من المعاني المتخيّلة لقيمة الإسكندرية الحضاريّة من خلال نموذج معماريّ اختاره الكاتب لمقاله.

"الإسكندرية.. مدينتنا!"[١] عنوان مقتضب موجز، ولكنه يحمل معنًى بليغًا؛ فهو يجلب التعاطف بنون الجمع حتى لو لم نكن من أهل الإسكندرية، ولكنها مدينتنا جميعًا، فيجب علينا تحمُّل المسؤولية تجاه تلك المدينة الغالية. وهو عنوان مستوحًى من مشهد وثائقي استعان به يوسف شاهين في أحد أفلامه عن الإسكندرية، كما ذكر الكاتب في مقاله.

"حفل زفاف في ضواحي باريس!"[٢]، عنوان جذّاب لا شك يتخذ من المفارقة بين باريس الفرنسية وباريس القابعة في الصحراء الغربية المصرية سبيلًا لنيل اهتمام القارئ، وواضح هنا تناصُّ العنوان مع الفيلم السينمائي المعروف، الذي دارت أحداثُه في تلك القرية الصحراويَّة: "زوجة من باريس"، فيما يمثّل تعانُقًا بين الفنون المختلفة لدى عاطف معتمد.

مثل هذا يقال في العنوان الآخر "رصاصة واحدة في جيبي!"[٣]، المتناصّ بالفيلم المصريّ المأخوذ عن رواية إحسان عبد القدوس: (الرصاصة لا تزال في جيبي).

ومن العناوين التي اتخذت من الفنّ مادّةً لها تمدُّها بالتجديد والنبض، بيت الشعر من قصيدة (النهر الخالد) الذي غُنِّيَ فيما بعد: "شابت على أرضه

(١) الإسكندرية.. مدينتنا ٨ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) حفل زفاف في ضواحي باريس! ١١ أغسطس ٢٠٢٠.

(٣) رصاصة واحدة في جيبي! ٦ أكتوبر ٢٠٢١.

الليـالي!"[١]، لمحمـود حسـن إسـماعيل، وهـو فـي نهـر النيـل؛ فالشـعر مصـري، والأغنية مصرية، والكاتب مصري، والحديث في جغرافيا جبلٍ من جبال مصر.

وقد يساير كاتبنا (الموضـة) الثقافية –ولو من حيث الشكل– حين يختار عنوانًا يُشاكل تيّارًا صاخبًا في حياتنا الفكريَّة المعاصرة؛ جرًّا لأعين القرَّاء – أو طائفةٍ كبيرةٍ منهم– إليه: "النسوية في جغرافية النوبة!"[٢].

وهناك عناوين أخرى لها مدلولاتٌ واضحةٌ من التشويق والجاذبيّة التي توخَّاهـا كاتبنـا وهـو يصـوغ مقالاتـه مـن نحـو: "بطعـم الجوافـة!"[٣]، "الإسكندرية...مرآة البحر!"[٤]، "أسوان.. خجل كان يمكن تجنبه!"[٥]، "مسافر إلى "تكلا العنب"[٦]، "الكلمة التي حيرتني!"[٧]؛ وهلُمَّ جرًّا.

علـى أنـه ربمـا لا يعنـون بعـض مقالاتـه[٨]؛ ربمـا لأنـه لـم يجـد العنـوان المناسب لما يفيض به مقالُه أو لما يعتمل في نفسه، أو لأنه وجد في مثل هذا نوعًا من الجذب الذي يولع به، من الممكن أن نُسمّيَه بالجذب الصامت.

(١) شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.

(٢) النسوية في جغرافية النوبة! ١٨ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) بطعم الجوافة! ١١ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٤) الإسكندرية...مرآة البحر! ١٠ نوفمبر ٢٠٢١.

(٥) أسوان.. خجل كان يمكن تجنبه! ١٤ نوفمبر ٢٠٢١.

(٦) مسافر إلى "تكلا العنب". ٧ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٧) الكلمة التي حيرتني! ١٦ سبتمبر ٢٠٢١.

(٨) كالمقال الذي نشره من غير عنوان في: ١٩ سبتمبر ٢٠٢١، ومقال آخر نشره من غير عنوان في: ٢١ نوفمبر ٢٠٢١.

التَّوطِئة:

لعلي أزعم أن جهد صناعة (العنوان) في مقال عاطف معتمد قد خلَّف أثرًا سالبًا في صناعة مقدِّماته مع أننا قد نجد جهدًا لا يخفى في مداخل بعض المقالات[١]، على أنَّ هذا لا يعيب صاحبَنا في كتابته؛ إذ العنوان في الحقيقة المدخل الأول إلى المقال، بل المدخل الأقوى الذي يضمن القراءة من عدمها، ولقد علم الكاتب هذا فكان خليقًا به ألّا يُضيّع جُهدًا كبيرًا لهذا الجزء من مقالته، بل يدخل إلى الموضوع مباشرة، وإن كان سيحتاج إلى هذا الجهد مرّةً أخرى في الخاتمة، حتى يضمن من الجماهير العودة.

تبدأ المقالة غالبًا إذن –بعد العنوان– بالموضوع نفسه، ولكنه قد يمهّد له بحكاية صورةٍ التقطها[٢]، أو بقصّةٍ شخصيّةٍ يرويها عن أيام دراسته[٣]، أو بعد أن أصبح أستاذًا[٤]، وربما يبدأ ببداية مقتضبة جدًّا عن خبر سفره إلى هنا أو هنالك[٥]. ثم يأخذ في مقاله.

قلنا إن من أسباب هذا الاقتضاب في الولوج إلى الموضوع استيفاء العنوان للشرط الإغرائيّ، ويمكن أن نضيف كذلك ضيقَ مساحة المقال الذي وضع حدوده بألف كلمة، ضِيقَها عن استيعاب كل هذه الصناعات في العنوان والمدخل والخاتمة.

---

(١) مثل مدخله الذي وطأ به في مقالة: الشمندورة! ٢٢ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) انظر مثلًا: الإسكندرية...مرآة البحر! ١٠ نوفمبر ٢٠٢١، و: في حميثرة سوف ترى! ١٩ ١٩ يناير ٢٠٢١.

(٣) انظر مثلًا: ١٩٩١.. أبو محرك/ أبو محرق٢٩ ديسمبر ٢٠٢١.

(٤) انظر مثلًا: في بلاد العبابدة ... أدب الجيولوجيا الوثائقي! ١٥ ديسمبر ٢٠٢١.

(٥) انظر مثلًا: أسوان... الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١، و: أيهما تفضل: ملل الوقار الوقار أم بهجة الهلاوس!؟ ١٨ مارس ٢٠٢١.

وهذه البدايات المقتضبة كافيةٌ جدًّا ليمضيَ الكاتبُ في موضوعه؛ إذ هو ما يفتأ في سياق كتابته أن يغرينا مرّةً بعد مره، بجمال تحليله، أو بذكاء أسئلته، أو بغرابة فوائده، حتى يصل بيُسرٍ وسلاسةٍ إلى نهاية مقالته. "فكاتب المقالة على أصح صورها، هو الذي تكفيه ظاهرةٌ ضئيلة مما يعج به العالم من حوله، فيأخذها نقطة ابتداء، ثم يسلم نفسه إلى أحلامٍ يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثرٌ قوي في استدعائها عن عمدٍ وتدبير، حتى إذا ما تكاملت من هذه الخواطر المتقاطرة صورةٌ، عمد الكاتب إلى إثباتها في رزانةٍ لا تظهر فيها حدة العاطفة، وفي رفق بالقارئ حتى لا ينفر منه نفور الجواد الجموح؛ لأن واجب الأديب الحق أن يخدع القارئ كي يُمعن في القراءة"[١].

تلوينُ الخاتمة:

يلوّن عاطف معتمد خاتمة مقالاته بألوان مختلفة، ما بين: تشويق إلى متابعة مقال تالٍ، واقتباسٍ مؤثّرٍ، وشعرٍ ربما يكون عامّيًّا، أو سؤالٍ استنكاريٍّ أو حكمةٍ ما؛ إلى غير ذلك.

من أجلى ألوان إغلاق المقال لدى عاطف معتمد استناده الكثير على عنصر التشويق، فهو يعمد إلى ترك القارئ منتظرًا مترقّبًا ما سيكتب في المقال المقبل، فأحيانًا يحسم مقالَه بغتةً؛ إذا وجد أن قلمه قد سال بما زاد عن المقدار الذي حدّده لنفسه؛ فيختم مقاله حينئذٍ بختامٍ يتضمّن وعدًا بالإكمال والمتابعة في مقالٍ لاحق، أو في المقال اللاحق[٢].

(١) جنة العبيط ص١٣.

(٢) مع أنه ربما لا يفي بذلك في بعض الأحيان، مثلما صنع في مقالة: النوبة: بلاد الذهب أم أرض النبال؟! ١٧ فبراير ٢٠٢١.

تراه يعبِّر عن هذا الإكمال أو المتابعة بعباراتٍ متقاربة متواترةٍ، أسوق أمثلة هذه العبارات على النحو الآتي: "بقية عرض الكتاب في مقال مقبل بإذن الله"(١)، "دعونا نتحدث عن الجغرافيا والأسطورة في النوبة في المقال المقبل بإذن الله"(٢)، "في المقال المقبل بإذن الله أروى لكم بقية الحكاية"(٣)، "دعونا نكمل في لقاء مقبل بإذن الله!"(٤)، "دعونا نرسم خريطة النوبة ونعرف معالمها في مقال مقبل بإذن الله"(٥)، "دعونا نلتقي حول هذا السؤال في مقال مقبل بإذن الله"(٦)، "في المقال المقبل بإذن الله أحدثكم عن الكتاب الهدية الذي جاءني من أحد الذين ولدوا في القصير في مستعمرات الفوسفات في جبل "ضوي""(٧)، "دعونا نبدأ تسلسل الأحداث من مدينة الموتى إلى العصر الحديث في مقال مقبل بإذن الله"(٨)، "لن أطيل عليكم.. سأكتب عن ذلك في المقال المقبل بإذن الله وأنتهز الفرصة لمراجعة الخريطة"(٩)، "للحديث بقية "(١٠).

هذا النوع من الخواتيم كثيرٌ كما هو واضح من الأمثلة المستفيضة التي سُقتها، ومع أنه حيلةٌ قديمةٌ في التشويق لكنها ما زالت تؤتي أُكُلها في جذب القرّاء جديدهم وخبيرهم، فالنفس مطبوعةٌ على الفضول في العادة حتى إن زعمتْ

(١) من سيوة إلى كرداسة! ١٩ سبتمبر ٢٠٢١.
(٢) مقال ليس له عنوان، ٢١ نوفمبر ٢٠٢١.
(٣) أسوان...الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.
(٤) الإسكندرية.. مدينتنا! ٨ نوفمبر ٢٠٢١.
(٥) النوبة: بلاد الذهب أم أرض النبال؟! ١٧ فبراير ٢٠٢١.
(٦) مئذنة بلال! ١١ فبراير ٢٠٢١.
(٧) ضوي، ١٩ إبريل ٢٠٢١.
(٨) قنا...افتراق الطرق وتلاقيها! ٢٧ يناير ٢٠٢١.
(٩) كوفيد – ١٩ ينقذ "السيد"! ٢٤ يناير ٢٠٢١.
(١٠) النيل نجاشي! ١ ديسمبر ٢٠٢١.

أو تظـاهرتْ بخـلاف ذلـك. ينـجح عـاطف معتمـد مـن خـلال هـذه الحيلـة السـهلة المعروفة في جعل القرّاء منشغلين بكتابته، منتظرين مقاله القابل. ولعله يلجأ إليها حين لا يريد أن يُجهد نفسه بصناعةٍ خاصّة يختم بها مقاله، أو حين يرى أنّه لم يفرغ من أفكار مقاله بعد في القالب المحدود الذي حدّه به، وأنه يحتاج إلى تجديد نشاط القارئ في مقالٍ لاحق.

هذه إذن هي أبرز حيلةٍ أو صناعةٍ يختم بها عاطف معتمد مقالاته، ولكنه قد يلجأ إلى حيلٍ فنية أخرى أقل كثيرًا من عنصر التشويق السهل.

يكتب في بعض خواتيمه في مقالٍ عن مدينة المنيا الصعيدية: "كل شيء جاهز هنا، ينتظر العمل الجاد حتى لا يعتقد الناس أن "إلمينيا" مكانا مجهولا وليس "عروس الصعيد"[(١)]؛ فيضع "عروس الصعيد" بين علامتي تنصيص تنبيهًا تنبيهًا على اشتهارها بذلك، وليس كما هي في الواقع، وهي خاتمة رامزة إلى ما ينبغي أن تكون عليه المنيا، أو هي دعوة إلى أن تكون ما يُزعم.

وفي بعض المقالات يتملّح ببعض أشعار العامية في الختام: "عبرت أمس كوبري عباس وبعض أبيات من شعر أمين حداد ترن في أذني:

"**الزمن ما فيهوش دلوقتي... الزمن شغال على طول**

والحياة حزنها فوق طاقتي

عشتها ومتها مذهول"[(٢)].

هذه الخاتمة ونحوها من الاقتباسات العامية جيدة في المقالات الجمهوريّة؛ إذ بها يقترب الكاتب من المزاج الذي يغلب على بعض القراء من أُلْفةِ العامية، وعند مجمل القراء الذي يعيشون المستوى العامي من اللغة في كل يوم من أيام

(١) ضحية المواقع الوسطى! ١٠ يناير ٢٠٢١.

(٢) على كوبري عباس! ٣٠ نوفمبر ٢٠٢١.

حياتهم، فيجدون في ذلك شيئًا من الأنس والعاديَّة، وكأن هذا النوع من الاستشهاد يقرِّب الأدب الفصيح ولا يُبعده، إذا استُخدم بمقدارٍ مدروسٍ واحترافية مشهودة كما عند عاطف معتمد.

وقد يختم بخاتمة مدَّخرة قبل بداية المقال، ومجهّزة لكي تكون آخرَه: "في النسخة التي أهداني إياها الأديب النوبي الكبير كتب كلمات قليلات: "يا صديقي: هذه المجموعة ستعجبك.. صدقني!". قد تحقق فعلا ما توقعه أديبنا المبدع"(١).

وقد يختم بخاتمةٍ يسيرة، من مثل قوله في نهاية مقاله عن الدلنجات: "سلامٌ على الدلنجات وأهلها"(٢). وهي نهاية حزينة، بعد أن كشف واقع تلك المدينة، وأنها قد فقدت خصائصها على نحوٍ كبير.

وقد يُنهي بنهاية لطيفة لا تخلو من سخرية ناقدة: "حين وصل سائقنا المتهور إلى إيتاي التي انطلقت منها صباحًا شعرت بسعادة بالغة فقد حققت انتصارات صغيرة متتالية: ها أنا راجعت الخرائط مع الواقع، وشربت فنجان قهوة ساعة العصاري على مقهى في سيدي مسعود ناظرا إلى الترع والجسور، وفوق كل ذلك نجوت بأعجوبة من مسدس المرشح الانتخابي"(٣).

ولا نفتقد روح الفكاهة في خاتمة مقالة أخرى إذ يكتب: "في زيارتي المقبلة إلى الهضبة سيحل التفسير العلمي الوقور وسأفتقد إلى غير رجعة تلك الهلاوس المبهجة. سامح الله البهي عيسوي!"(٤).

(١) الأنثروبولوجيا الثقافية في النوبة! ٢٨ ديسمبر ٢٠٢١.

(٢) مسافر إلى الدلنجات! ١٠ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٣) مسافر إلى "نكلا العنب"! ٧ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٤) أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟ ١٨ مارس ٢٠٢١.

أو يختم بالموعظة، يقول في سياق الحديث عن أبي الحسن الشاذُلي المدفون في قرية عَيْذاب، وقد مضى ليموت في هذا الذي أطلق عليه "حميثرة" لقصةٍ رواها الكاتب؛ ختم مقاله بهذه الألفاظ الحاثّة على الزهد: "وفي الختام أود أن أبدي إعجابي بتلك الروح العارفة، ليس فقط لحال الدنيا بل العارفة بدنو أجلِها، فاستعدت للرحيل وجهزت أغراضها للقاء ربها. لكل منا حميثرة، والعاقل من يستعد لها"(١).

وفاجأنا مرةً بلونٍ ختاميٍّ غريب إذ أنهى مقاله نهايةً مبتورة، أو هو في الحقيقة لم يختم مقاله بل تركه ووضع نقاطًا للدلالة على الفراغ، وهي نهايةٌ مستغربةٌ في رأيي، ولا أراها جيدة، على هذا النحو: "تختلف مدينة قنا قبل مئة سنة في تمحورها حول مقام سيدي عبد الرحيم عما هي عليه الآن وأوجه الاختلاف في ..... لن أطيل عليكم.. سأكتب عن ذلك في المقال المقبل بإذن الله وأنتهز الفرصة لمراجعة الخريطة"(٢).

وقد حاول أن يجعلها مشوقةً على طريقته الغالبة، ولكن هناك فرق فالخاتمة التشويقية ذات قرارٍ –حتى لو كان مؤقتًا– تنتهي المقالة إليه، أما هذه فمبتورة صادمة، وهذا خلل فنّي نادرًا ما نلقاه لدى الكاتب. والسبب فيه واضحٌ هو طول الفكرة التي لم يُسعفها حجم المقال الذي حدده لنفسه في نحو ١٠٠٠ كلمة.

ويفتنُّ بطريقةٍ أخرى فيترك مقاله مفتوحًا في نهايته: "انكماش العمر الافتراضي ناتج عن أن النمو العمراني أبطأ بكثير من تغول النمو السكاني، والخدمات أضعف بكثير من الطلب والحاجة، ونحن –في الحقيقة – نستهلك أكبر بكثير مما نتج !ما العمل؟! "(٣).

(١)في حميثرة سوف ترى! ١٩ يناير ٢٠٢١.

(٢) كوفيد– ١٩ ينقذ "السيد"! ٢٤ يناير ٢٠٢١.

(٣) العمر الافتراضي لكلمة الـ Re، ٩ سبتمبر ٢٠٢١.

فهذه نهاية مفتوحة نادرة على هيئة سؤال، ألقى بالمشكلة ولم يذكر الحل، وكأنّ الحل شديد الاستعصاء على مثل هذه المقالة!

ومع هذا التلوين الملاحظ في الخواتيم، نحكم بأنَّ عاطف معتمد كان يهتمّ بمداخله المتمثِّلة في العناوين خيرًا مما يهتم بخواتيمه، وكأنه قد ضمن ولاءَ قرّائه لمقاله، وعلم من التجربة أنهم سيكملون قراءته، فلم يعبأ بالتلوين الفنِّي الكبير للخاتمة كما كان يعبأ به في المدخل.

التدفُّق وجاحظيَّةُ العَرْض:

نعني بجاحظيّة العرض: التفنن والاستطراد، ومع أن كاتبنا قد يبدو منه ذلك في مقاله؛ فإنه كان هدفه واضحًا في ذهنه حال الكتابة ومحددًا، فالاستطراد هنا ليس غايةً، بل وسيلة، وهذا هو الجديد في فنٍّ مقاليّ؛ ذلك أن المقالة غالبًا محدَّدة، ومسيطَرٌ عليها، ومتّجهة إلى غايةٍ تظهر غالبًا من فقرتها الأولى، لكن الأمر عند عاطف معتمد يعتمد على التلحين –إن شئنا القول– على أنغامٍ كثيرةٍ ممهّدةٍ لنغمته الأم التي يصبو إليها، فهو يُفيض عليك بحرًا من المعلومات والفنون، ثم يَهديك إلى موضوعه فيأخذ بيدك قبل أن يُغرقك البحر، فأنت شاعرٌ حينئذٍ بلذّات مختلفة: لذة المعرفة، ولذة وجود العلم في هذا الزمن الذي طغت عليه أشياءٌ كثيرة، ولذة النجاة بعد التقلُّب بالإمساك بطوق المقالة، فهي لذَّاتٌ تترى وأنت تقرأ مقالته، لا بل قبل أن تقرأ مقالتَه، لأنَّ قُرَّاءه اعتادوا، وهو عوَّدهم هذه الطيّبات، ولعله لم يُخيّب ظنهم في مقالةٍ من مقالاته.

يقول مثبتًا هذه السمة المهمة في كتابته، التي وصفها بـ"عادته": "ها أنا كعادتي أخرج من موضوع لآخر وأترك العنوان الرئيس "مئذنة بلال" ويفقد القارئ

خيط التسلسل الذي بدأ به أولى الكلمات"[١]. إنه فقدانٌ مُوهمٌ متعمَّد لا كما يبدو من شكوى صاحبه، وإنما هي طريقةٌ من طرق الجذب في الكتابة.

ومن فروع تلك الجاحظيَّة في العرض: الطرافة والتفكُّه، والمقصود بالتفكُّه ليس إرسال النكات بصورةٍ ساذجة ليَضحك القارئ، بل إطرافه بالجديد المسلِّي الذي يضمن ولاءَه للعلم وللمعرفة ولمقالة الكاتب، وهو ولاءٌ محمودٌ غير منبوذ، وهذا الشرط من التفكُّه سبق إلى وضعه الدكتور زكي نجيب محمود حيث قال: "فإن التمستَ في مقالة الأديب نقمةً على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها، وإن افتقدت في مقالة الأديب هذا اللون من الفكاهة الحلوة المستساغة فلم تُصبه، فاعلم أنَّ المقالة ليست من الأدب الرفيع في كثيرٍ أو قليل، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة"[٢]. إنَّ الأمثلة على هذا يضيق المقام بها، ويستطيع القارئ أن يلمسها في كل مقالٍ من مقالاته، أو في جُلِّ تلك المقالات.

لقد رأينا من خلال التنقيب في تلك المقالات أن الدكتور عاطف معتمد كأنه كان يستمع إلى هذه النصيحة بعبارةٍ أخرى للدكتور زكي نجيب محمود يقول فيها: "تريد للقارئ أن يشعر وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيفٌ قد استقبله الكاتب في حديقته ليمتعه بحُلو الحديث، لا أن يُحس كأنما الكاتب قد دفعه دفعًا إلى مكتبته ليقرأ له فصلًا من كتاب"[٣]. إن التعبير بكلمة (الحديقة) تعبيرٌ موحٍ صادق على ما نتقلَّب فيه من النعيم في تلك المقالات.

لقد وضح لنا من خلال دراسة المقالات تأثيرُ آراء الدكتور زكي نجيب محمود النظريَّة، في فلسفة الدكتور عاطف معتمد في كتابة مقالاته، فهو يكاد أن ينقل كلامه في مقدمته التي كتبها لكتابه (جنَّة العبيط) فيما نقلناه عنه آنفًا، ثم

(١) مئذنة بلال! ١١ فبراير ٢٠٢١.

(٢) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ص٩.

(٣) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ٩-١٠.

إنه –وهذا الأهم– يتمثّل هذه الفلسفة خير تمثُّلٍ في أثناء مقالاته الجغرافية، كتب مرَّةً مثلًا على ذات المنوال النظريّ: "المقال ليس بحثًا أكاديميًّا يقوم على فرضية ومشكلة بحث ونتائج وخاتمة بل هوية المقال الأساسية هي الانتقال من فكرة لأخرى على غير هدى... نعم على غير هدى! المقالات كائنات حية من حروف وكلمات، تشبه العصر الذي تكتب فيه، وتحمل معها كل علامات الحرية أو اللاحرية"(١).

ومع ذلك فقد أفرط زكي نجيب محمود في بيان مذهبه –وهو ما لا نرى عاطف معتمد قد اتخذه سبيلًا في كتابته– حيث تناقض في مثال (الحديقة) الذي ضربه منذ قليلٍ فكتبَ مشترطًا أن تكون المقالة على غير نَسَقٍ من المنطق: "أن تكون أقربَ إلى قطعةٍ مشعّثة من الأحراش الحوشيّة منها إلى الحديقة المنسّقة المنظّمة"(٢)، وليس ما كتبه عاطف معتمد كذلك، ليس أحراشًا حوشيَّة، بل هو حديقة منسَّقة منتظمة، ربما طغى فيها لونٌ على لونٌ، ولكنه طغيانٌ في حدود المنطق الفنّي المتقبَّل.

لقد أجدى هذا التلوينُ الحقليّ كاتبَه في إحداث ميزةٍ أخرى في تلك الكتابات هي ميزة التدفُّق، أو أنَّ ميزة التدفُّق استدعت ذلك التلوين. نعم تمتاز كتابة عاطف معتمد بالتدفُّق والاسترسال، والسخاء في الكتابة؛ إذ كيف لكاتب أن يكتب مقالًا من ألف كلمة يومًا بعد يومٍ تقريبًا أو كل بضعة أيام بصورةٍ منتظمة!

هذه السيولة أُشبِّهها بماء النيل الذي تظنه سينقطع في مفاوز الصحاري المتتابعة التي تعترضه، ولكنه ينفذ فيها قويًّا متفجِّرًا متفنِّنًا، معطيًا وممتعًا؛ ثم يصل إلى غايته.

(١) في منشورٍ وليس مقالًا كتبه في صفحته من غير عنوان في: ١١ يوليو ٢٠٢١.
(٢) جنة العبيط ص١٠.

إنّ الكتابـة عنـد عـاطف معتمـد ليسـت وسـيلة لعـرض أفكـاره وتجاربـه الجغرافيـة، بـل هـي غايـة فـي ذاتهـا، إنـه يُنشـئ تجاربـه الجغرافيـة، ويخوضـها، ويُنتّجها؛ لكـي ينتهـيَ إلـى (الكتابـة) عنهـا؛ إنـه كاتـبٌ فـي إهاب جُغرافـيّ، وفنّانٌ ينظرُ إلـى الخرائط. ولـذلك تـراه يجد راحتـه فـي كتابتـه، ذلـك أنّ المبدع مـا تـزال تضطرم المعاني والأخيلةُ والأفكار في نفسه إلى أن يسكبها بمداده على الورق، فإذا اطمأنَّتْ نفسُه إلى أنه قد قيّدها، وأنها لم تضع أو تخمد جذوتُها، ارتاح واغتبط، وتفرّغ لنقاش (أصدقائه) وشُكرهم على ما يُبدون من تعليق أو سرور.

إنَّ من أسباب ذلك التدفُّق كذلك هو القالَب الجديد الذي يكتب فيه الكاتب، أعني وسيلة التواصل (الفيسبوك) التي تتيح له رؤية انفعال قرّائه بما كتب، فهذه الخاصّة الجديدة لم تكن متاحةً على هذه الصورة (الديناميكيَّة) فيما قبل، حيث يرى الكاتب بعينيه أثرَ مقاله في قرّائه في التوّ أو بعد دقائق من قراءة مقاله. وإنَّ هذا ليُشجّعه على المضيّ قُدُمًا في الكتابة، وهو خير حافزٍ فيما نرى، وسببٌ كبيرٌ من أسباب التدفق العارم في كتابة عاطف معتمد؛ إذ حين يرى أثر كتابته وثمرات ما خطَّتْ يدُه، يعتزم على المواصلة، والعودةِ من جديد كل يوم.

السِّمة الصُّحفيَّة:

لم يكن عاطف معتمد صُحفيًّا فيما يكتب، ولكنه لم تغب عن كتابته سمةُ الصحافة، يمكن القول إنه كان يكتب مقالًا ذا سمةٍ جديدةٍ تناسب القالَب الفيسبوكي الجديد، نعم كانت تظهر له مقالات صحفية بحتة، غير أنه كان يحاول أن يساير تغيُّر القالَب الكتابي. لم تكن كتابته صحفية إذن بالمفهوم الورقي وإن كانت جماهيريَّةً بالأسلوب الرقمي المستحدث. تلقى الدكتور عاطف معتمد تدريبًا صحفيًّا في بداية حياته أستاذًا في الجامعة، أعانه هذا التدريب على تهذيب كتابته من الجمود الأكاديمي إلى السلاسة والانطلاق والتنوّع، وهو شرطٌ لمن أراد أن يكتب إلى الجماهير، وهو ما لا يستطيعه كثيرٌ من الأكاديميين حين يكتبون بكتابة ذات خصائص أكاديمية.

يفرّق الكاتبُ نفسه بين هذين النوعين من الكتابة في مقالةٍ بعنوان: (الأكاديميا والصحافة!)، يقول فيها: "أعرف كثيرا من الصحافيين الذين يحلمون بالحصول على الدكتوراه، وكثيرا من الأكاديميين الذين يحلمون بالكتابة في عمود صحفي دائم. ما يريده الصحفي من الأكاديميا هو ثلاثية المنهج، وصياغة النظرية، والحبكة العلمية في تحليل محصن بالمراجع. وما يحتاجه الأكاديمي من الصحافة هو الانتشار والوصول إلى القاعدة العريضة بدلًا من الانغلاق في دوائر حبيسة. وقد اتضح لي على مر الزمن أن الأكاديمي إذا أفرط في حبه للصحافة تعرّض لخطر شديد بوقوعه في العبارات السهلة والجمل المنطلقة بدون رابط علمي ولا أساس مرجعي، فضلًا عن فخ إطلاق الأحكام العريضة والعبارات الرنانة. والصحفي إذا أغرق في الأكاديميا وقع في فخ تدشين كلامه بالمراجع والنظريات الجوفاء التي تفقده القدرة على الوصول للناس"(١).

لقد كان صاحبُنا على علمٍ بالحدود الفاصلة بين الكتابتين، فحَذِرهما في كتابته المقاليَّة، فلم يكن صحفيًّا يطلق العبارات الرنّانة أو الشعارات الجوفاء التي تلعب على إلهاب حماس الجماهير بغير منطقٍ من القول، أو هُدًى من الضمير؛ كلا ولا كان بيروقراطيًّا ثقيلًا في أدائه الكتابيّ، تُزعجك منه الجديّة والنظام وهو يغضُّ الطرْفَ عن تململ جمهوره وملالته.

من هنا لا نزعم أن كاتبنا كان صحفيًّا وإن أفاد من تدريب الصحافة وعمله بها، ولذا فمقالُه يعترف بفضلٍ للصحافة، وليس الفضل كله، وبفضلٍ لفهم صاحبه طبيعة ما هو مقبلٌ عليه من الكتابة: كتابة خفيفة محبّبة، في إطارٍ صادقٍ من القول، ومفيد نافع يُنمّي أفكار القرّاء ويوجُّه أذواقَهم إلى الجميل والصائب في رأي الكاتب.

(١) الأكاديميا والصحافة! ٢٦ أكتوبر ٢٠٢١.

لقد كانت كتابته مع ذلك صالحةً للنشر الصحافي الورقي، ذلك أن القالب الذي اتخذه يفي بشروط الكتابة الصحفية الإثارية وزيادة، فالجمهور (الرقميُّ) أكبر في هذا الزمن من جمهور الصحافة، وهو أشدُّ تنوُّعًا منه، يضم الصغار والكبار، الذكور والإناث، بينما تغلب على قرّاء الصحافة الآنَ التقليديةُ والشيخوخة. إن المقالة في الصحافة الورقية قد عفا عليها الزمان أو سيعفو.

السِّمةُ السَّرديّة:

لا تخفى السمة السرديَّة على قارئٍ لمقالات عاطف معتمد، فهو يبدأ مقاله في أحيانٍ كثيرة بقصة شخصيَّة حدثتْ له في أسفاره الجغرافية أو رحلاته، وقد أسرّ لي حين عرضتُ عليه فكرة هذا البحث أنه يفكّر في جمع ما كتب ونشره تحت عنوان يحمل لفظة (الرحلات). والرحلة فنٌّ بشريٌّ قديمٌ قائمٌ على السرد، وإذن فصاحبنا يعلم أنه يسرد، بل هو ميّالٌ إلى أنَّ ما يكتبه أقرب إلى القالَب الرِّحْليّ القصصي.

قلنا إنه يبدأ كثيرًا من مقالاته بمدخل عبارةٍ عن قصة شخصيّة، وقد يستمرُّ في عرض المقالة المرادة في هذا القالب، بحيث ينهيها عليه.

نضرب مثلًا للبداية القصصية بإحدى مقالاته[1] التي يبدؤها بهذا الأسلوب القصصي: "القطار لا ينتظر أحدًا في محطة الجيزة، عليك أن تأتي مبكرًا ساعة أو بعض ساعة. الجلوس على رصيف المحطة ليس بائسا دومًا. هذه المرة مرّ الوقت سريعًا حين شاغلت نفسي بمتابعة مجموعة من السائحين الروس احتلوا نصف المكان".

يخلص من هذا المدخل المداعب للأفكار والهواجس عن هيئة هؤلاء السيّاح الروس، وما تستدعيه من الصور المسلّية للمنتظرين إلى حديثٍ عن

(١) ضحية المواقع الوسطى! ١٠ يناير ٢٠٢١.

أوضاع الدولة الشيوعية بعد الكارثة، وتشجيع السياحة الرخيصة في بلادهم، إلى أنّ المنيا واحدة من تلك الوجهات التي يبحثون عن زيارة أمثالها، لعدم شهرتها: "أعادتني ضحكات السائحين الروس إلى برنامج فكاهي كان يبث في التلفزيون الروسي قبل عدة سنوات. في واحدة من تلك الحلقات كانت الحبكة الفكاهية تقوم على أن عائلة روسية أرادت أن تزور مكانًا جديدًا في مصر لم تزره من قبل في تلك البلاد. وبعد مواقف ودعابات عن المدن المصرية وسلوك المصريين فيها اقترحت الشركة على السائحين الروس أن يزورا مكانا لا يعرفه أحد ولا يوجد به أية سائحين غيرهم، وكان الاقتراح هو "إلمينيا"".

ومن هنا يخلص إلى موضوع مقاله، ألا وهو مدينة المنيا، ولذلك فهو يقطع السرد بسؤالٍ مباغتٍ، يستقيه من مسألة الجهالة بمدينة المنيا حتى لو عند الروس، فيكتب في سياق السرد: "لماذا تعاني المنيا من هذا التجهيل؟"، وكأنه ينبّه القارئ إلى أنه –في الحقيقة– ليس في مجال السرد، وإنما في مقام المقالة، والمقالة مبحثٌ اجتماعيٌّ في معظم معالمه؛ فهو يخبر القارئ ألّا ينخدع بتلك البداية القصصية، ويُعيده إلى صواب التوجُّه إلى غاية الكتابة.

ينطلق من هذا السؤال إلى موضوعه في تحليل أسباب (تجهيل) المنيا، ويتناسى القصة الأولى التي جذبت القارئ إليه: "يبدو ظاهريًّا أن المنيا ضحية وقوعها في منتصف المسافة بين بؤرة سياحية وأثرية كبرى في الجنوب تمثلها الأقصر وأسوان وبؤرة جاذبة طاغية تمثلها الأهرامات والجيزة في الشمال". ثم هو لا يعود إلى تلك القصة، بل ينهي المقال بموضوعه الذي قصد إليه.

أما القصة الشخصية التي تأخذ بالمقال من أوله إلى آخره، بحيث يُفرغ في قالَبها مقاله، فكقصة رحلته إلى أسوان من خلال مقالته: "يونس في بلاد

الشـوق"[1]، التـي يحلـل فيهـا أجـزاءً مـن قصـيدة الأبنـودي التـي تتنـاول قضـيّة (الاغتراب)، وكأنّ أسوان قد اغتربت عن وطنها إذ تجوهلت زمانًا طويلًا: "في السابعة صباحًا نزلت شوراع "غرب سهيل" أبحث حائرًا عن فطور وقهوة. وبينما أتجاوز "أشري نارتي" نحو "بربر" كادت الدهشة تأخذ بي حين سمعت صوت محمد منير يشدو بأغنية "يونس في بلاد الشوق"، كان الصوت يأتي من شاب يسير بخطوات نشطة نحو غرود الرمال ويسحب خلفه جملا أشهب اللون، وفوق الجمل المتهادي تجلس بسعادة طفولية غادة أوروبية، شقراء هيفاء، ترتج صحة وجمالًا".

ثم يمضي في مقاله ناثرًا على القصيدة رؤيته النقديّة العميقة من خلال حكاية قصة السيرة الهلالية، ثم لا يعود إلى قصته الشخصية إلا في ختام المقالة، وكأنه رآها خير ختامٍ يقطع به هذا السرد التحليليَّ الباذخ الذي يتقلَّبُ فيه بين التاريخ والأدب: "ها أنا أصل إلى الخزان سيرا على الأقدام، وأعيد النظر مجددًا إلى حيث تركت الشاب الذي يقلد منير "كأنه هو"، وأرى من بعيد غرود الرمال الكثيفة التي تهبط عند بربر، تريد أن تردم النيل".

الصُّورة الفنِّيَّة:

لم يُخل عاطف معتمد مقالَه من صورٍ فنّيَّةٍ شفيفة تمنح القارئ البهجة، وتبثُّ في أرجاء الكتابة ظلالًا من الراحة التي يأوي إليها جمهوره، مستمتعين بالجمال اللغوي الذي ينثره الكاتب فَيْنةً بعد أخرى، وكأنما كاتبنا يرتاح هو أيضًا لمثل هذا القول من الأدب وقد نأى به عن صخب العقل وضوضاء الحياة اليومية.

(١) يونس في بلاد الشوق! ١٩ نوفمبر ٢٠٢١.

يكتب مثلًا في مقالة: (مسافر إلى نكلا العنب) وقد أزعجه بعض ما يرى: "عدت إلى مقعدي وهونت على نفسي، ووجدت أن الأمر لا يدعو إلى كل هذا القلق، نظرت إلى حقول الذرة التي تتخللها أفدنة يانعة من الكرنب الأخضر الذي ينتظر الحصاد بينما أصوات مضخات المياه التي تنقل المياه من الترع إلى الحقول تعزف جميعًا جملة موسيقية واحدة متكررة ومتوقعة تجمع بين النظام والتناغم"(١). إنه ينبغي ونحن ننقل هذه الصورة ألّا نعزلها عن سياقها، فقد جِيء بها لإراحة النفس، وإزاحة الكلال الذي أصابها من الواقع، فهي في الحقيقة مهربٌ يعرفه الأدباء إلى عالم من الجمال والفنّ.

وفي صورةٍ طريفةٍ أخرى استدعتها أجواء واحة سيوة الوادعة، يكتب: "كانت شوارع البلدة القديمة ضيقة للغاية في تلك الأثناء بما لا يسمح بمرور أكثر من حمار يحمل حمولة، وإذا تقابل حماران مصادفة فإن أحدهما لا بد أن يعود أدراجه أو يدخل أحد البيوت"(٢). وهي صورةٌ حقيقية تمثيلية، تمثل مشهدًا يستدعي الضحك أو التبسّم في أقل الأحوال.

على النقيض في صورةٍ تعتصر مرارةً يكتب واصفًا رجال قرية باريس في آخر المعمور المصري جهة السودان: "إن أردت هنا أن تخمّن عمر أحدهم فلابد أن تخصم من تقديرك ما بين ١٠ إلى ١٥ سنة، إذ ما تظنه في الخمسين هو في الحقيقة لم يتجاوز بعد السادسة والثلاثين، لا عجب: اسأل عن عزق الأرض وتقليم النخل واختلاق المعمور من المهجور من هامش الصحراء"(٣). إن تصوير الأعمال في تلك القرية بهذه الصور المقتضبة المنتقاة ليكفي في تخيّل ما يصبو إليه.

(١) مسافر إلى "نكلا العنب"! ٧ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٢) الباب انشال! ٢٢ ديسمبر ٢٠٢١.

(٣) حفل زفاف في ضواحي باريس! ١١ أغسطس ٢٠٢٠.

وفي صورةٍ جغرافيّة ناطقة لتضاريس النيل، يكتب هذه القطعة المدهشة في غمار مقاله: "قبل بناء الخزان والسد كان الشلال هنا اسمًا على مسمى، فالمياه وقت الفيضان كانت تصرخ هائجة مائجة بين الجزر الصخرية الجرانيتية، لم يكن أحد يعرف على وجه الدقة من الذي يصرخ: النهر المندفع مطلقا صيحات النصر الزاعقة أم الصخور النارية التي ترفض التفكك وتصرخ بعناد رافضة الهزيمة؟ (وربما اجتمعت الأصوات معا في ملحمة واحدة)"[(١)].

أما مقاله (بين فوكة وحمَّام الأميرات!) فإنه عبارةٌ عن معرضٍ فنّيٍّ غنيٍّ بالصور الرومانسية والرموز الشفيفة، يختمه بخاتمةٍ إشاريَّةٍ موحية، ها أنا ذا أنقل بعض أجزائه: "كانت أولى زياراتي إلى منطقة "رأس الحكمة" في شمال الصحراء الغربية عقب تخرجي من الجامعة. تلفتُ هنا أبحث عن مخافة الله في كل ما حولي وكأني سأجدها بين الصخور، فتشت عنها عند أعشاب البحر التي طردتها بإهانة أمواج مغرورة، غرست يدي مرارا أتلمسها في رمال تلال ناصعة البياض كأنها ثلوج فرّت إلينا من بلاد الشمال، أدرت رأسي مرارا بين أغصان أشجار التين العتيقة ... توقفت أمام "حمَّام الأميرات" عند أبعد نقطة في البحر من "رأس الحكمة". مكان يستحق اسمه عن جدارة: ماء رقراق، بحر أزرق مبهج، رمال حانية على أقدام الأميرات والملكات والوصيفات.. أكاد أسمع صدى صوتهن ما زال يجلجل بين الصخور والجروف وشعب البحر القريب... أصل أخيرا إلى غرفتي في مطروح، يأتيني من مسجد قريب صوت القرآن استعدادًا لرفع آذان المغرب، الشمس تنزل إلى أفق الغروب ساخرة من كل ما حولي.. القرآن يختم بثه من مكبر الصوت فيكون آخر ما أسمع "فاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"، أندسّ

(١) مئذنة بلال! ١١ فبراير ٢٠٢١.

في فراشي، تنتظرني من ليلة أمس رواية مترجمة ببلاغة عن الفرنسية عنوانها يقول "كيف أصبحتُ غبيا؟"(١).

تلك مقالةٌ تحتاج إلى تحليل نقديّ مفصَّل لما تضمّنته من الصور والرموز، يضيق عنه المقال، ولا شك أنها تشهد تضجٌّ بالإجادة الفنّيّة.

ومن الصحيح القول إنَّ ما يلقانا من الصور عند كاتبنا ليس كثيرًا قياسًا بحجم المقالات، ولكنه يكشف عن فنّانٍ يستطيع التصوير الأدبي الحُرّ، ذلك التصوير الذي ينبع من نفسٍ تُحسّ، ومن قلمٍ لا تنقصه الخبرة الأدبية.

مِساحةُ العامِّيَّة:

يمكننا أن نشهد توظيف العامية في مقالات عاطف معتمد في جانبين: جانب الألفاظ والتعبيرات في درَج الكتابة، وجانب الاختيار من أشعار العامّيّة.

أما الجانب الأول فإن الدكتور يستخدمه بذكاء وفطنة وحِسٍّ لغويّ نابض، يُقرّب من خلاله مستعمَل العامّة الفصيح إلى لغة الكتابة الفُصحى، وهي طريقةٌ تدل على خُبرٍ بمستويات اللغة، وحسن اصطناعٍ لها في تشغيلها في مستوياتٍ أخرى، وهذه الطريقة مما امتازت به كتابة أديبٍ كبيرٍ كنجيب محفوظ، حيث تعود الحياةُ إلى ألفاظٍ وتعبيراتٍ كنا نظنها ضائعةً في غياهب العامية، أو يعود النبض بمثل هذه التعبيرات التي يطرب لها القارئ العادي، إلى نصٍّ كاد أن يجمد.

فالصورة التي تبعثها كلمة "يُزهزه" –وهي عامّيَّةٌ مشرقة– مبهجة، يعرفها كلُّ مَن اختلط بأرض مصر، في قوله: "كان الأرز الذي ظننته قمحًا وقت النضج يحاول أن يزهزه في أفق لا نهائي"(٢). ومع أنَّ هذا الفعل مهملٌ بصيغته

(١) بين فوكة وحمَّام الأميرات! ١٢ مارس ٢٠٢١.

(٢) مسافر إلى "تكلا العنب"! ٧ سبتمبر ٢٠٢٠.

في المعاجم، فإنَّ له استعمالات تدل على معناه المعروف، الذي نعرفه في عامّيتنا، يقول الزبيدي في مادة (زهزه): "الزَّهْزاهُ: أهمله الجوهري وصاحبُ اللسان، وقال الصَّاغاني: هو المختال في غير مَرْآة"(١). ولعل هذا ينطبق على صورة الأرز التي أوردها الكاتب.

ويستعمل الكاتب تعبيرًا دارجًا فصيحًا، فيحييه ويبعث فيه أو يبعث في كلامه بسببه الصورة، وهو تعبير: "كل مَنْ هبَّ ودبَّ" في قوله: " تخيل أن سكان كفر الشيخ يعانون مثلا من ضعف المياه الواصلة ومن تلوثها وشحها لأنهم في آخر رحلة النهر بعد أكثر من ألف كم قطعها النهر من أسوان إلى البحر المتوسط وقد ألقى في مياهه "كل من هب ودب" بملوثات وأخطار تفسده كمًّا وكيفًا"(٢). وجودة هذا التمثُّل بالعبارة العامية –إضافةً إلى التنبيه على فصاحتها وبلاغتها– قربُها إلى النفس والسمع، فهو يخاطب جمهورًا يسمع كل يومٍ كلامًا كهذا في أحاديثه وشوارعه، فيُحسُّ حينئذٍ بقرب النص منه، فيميل له ويُصغي إلى أفكاره.

وبنفس الطريقة يستخدم هذا التعبير الدارج: "يضرب كفًّا على كف"، في قوله: "لا أنسى حزن وتذمر أحد رؤساء مراكب الصيد في دمياط على ساحل البحر المتوسط حين أخذ يحدثني وهو يضرب كفا على كف"(٣).

وبتعبيرٍ مغرقٍ في العاميّة حين يقول: "وأقاليم تعيش دون خط الفقر في نفس ذات الوطن الواحد"(٤)، "في نفس ذات" لم نكن نظن أن كاتبًا يستعملها في

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، محمّد مرتضى الحسيني ٣٩١/٣٦ (تحقيق عبد الكريم العزباوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط٢٠٠١/١م).

(٢) أسوان... الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) اللغة والبيئة! ٦ فبراير ٢٠٢١.

(٤) الحق في المكان! ٢١ أغسطس ٢٠٢١.

كتابةٍ فصيحة، ولكنّ عاطف معتمد بحسّه اللغوي استطاع أن يجعله تعبيرًا مقبولًا في أسماعنا، من غير نكرانٍ لسلامته اللغوية.

والجانب الثاني يتمثّل في اختياراته من شعر العاميّة، وقد وقفنا من قبل على اختياره لقصيدة الأبنودي: (يونس في بلاد الشوق)[١]، وتحليله المتمكّن لأبياتها، وفهمها على نحوٍ فنّيٍّ بديع، مع مزجها بالحديث عن المغنّي. ووقفنا على تحليله لقصيدة عامية لأمير الشعراء أحمد شوقي غناها عبد الوهاب، بعنوان: (النيل نجاشي)[٢]، وفيها الجملة الشهيرة: ""صلح قلوعك يا ريس".

والحق أن عاطف معتمد ليس كاتبًا عاميًّا، ولا كاتبًا يستخدم اللغة الوسطى بين الفصيحة والعاميَّة، بل هو كاتبٌ يتوخّى الفصحى القريبة في كتابته، وأما استخدامه للعاميّة ففي مساحةٍ محدودة ومحدَّدة، يعرف صاحبُها متى يوردها في تضاريس مقاله.

فهو يصنع هذا إن أراد أن يبني مقاله عليها كما في (يونس في بلاد الشوق)، و(النيل نجاشي)، أو أن يستخدمه في جزءٍ من مقاله، كالخاتمة الواعظة وهو يتحدث عن ذكرى صديق، كما في اقتباسه من شعر أمين حداد، إذ يقول: "عبرت أمس كوبري عباس وبعض أبياتٍ من شعر أمين حداد ترن في أذني:

"**الزمن ما فيهوش دلوقتي... الزمن شغال على طول**

والحياة حزنها فوق طاقتي

عشتها ومتها مذهول"[٣].

أو هو يستدعي تلك الأشعار كي يثبت رأيًا علميًّا، أو منحًى نقديًّا يرجّحه، كما في حديثه عن المنارة (الشمندورة) التي يُهتدى بها في البحر (النيل): "قبل

(١) يونس في بلاد الشوق! ١٩ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) النيل نجاشي! ١ ديسمبر ٢٠٢١.

(٣) على كوبري عباس! ٣٠ نوفمبر ٢٠٢١.

ثلاثة أعوام نقلت للعربية كتاب "ثلاث سنوات في صحراء ليبيا" عن حياة بدو "أولاد علي في مصر وليبيا". الكتاب دونه مؤلف ألماني قبل نحو ١١٠ سنة، لا أعرف الألمانية بعد، ومن ثم استعنت بالترجمة الإنجليزية ونقلت منها الكتاب إلى العربية بمشاركة تلميذتي النجيبة أماني فايز. المؤلف الألماني نقل من أولاد علي أغنية يهيم فيها أحد الرجال شوقا بامرأة يحبها فيقول:

"**حبك زي المنارة اللي نورها يضوي المدى،**

زي النبع اللي تشوفه العين في الصحرا ويجلب مطر،

زي نهر فياض ما ينجو منه سبَّاح،

زي النار اللي تأكل كل شي،

نشفت ينابيع الحب من زمان،

وما عادت تجري فيها مَيّ"!

عاد السؤال إلى ذهني مجددًا: أي منارة يفتتح بها الشاعر في صحراء مصر الغربية أغنيته؟ هل يقصد الشاعر منارة (فنارة) الإسكندرية غير البعيدة عن مريوط؟ أم يقصد أطلال منارات كانت في العصرين اليوناني الروماني فوق تلال "أبو صير الصغرى" و"أبو صير الكبرى"؟[١].

المساحة الأجنبيَّة:

يَقدُر الدكتور عاطف معتمد الحرف العربيّ قدره، فلا يستخدم غيره إلا فيما ندر، أو في مقام الشرح أو الاصطلاح، كما في هذا المصطلح: "الحي القناوي Qenatown" الذي أراد صكّه، حيث يقول: "الحقيقة لا يوجد بعد مصطلح في الجغرافيا البشرية المصرية يسمى "قنا تاون" Qenatown أو "الحي القناوي"، ولم يرد بخاطري صياغته إلا هذا الأسبوع نسجًا على منوال "الحي

(١) الشمندورة! ٢٢ نوفمبر ٢٠٢١.

الصيني" أو تشاينا تاون Chinatown، وهو المصطلح الشهير في جغرافية الهجرة والعمران والذي يشير إلى مجتمعات المهاجرين الصينيين خارج بلادهم وخاصة في جنوب شرق آسيا وأمريكا الشمالية"[١]، وهو يعني ذلك الحي في مدن البحر الأحمر: راس غارب وسفاجا والقصير، ومثل هذا النحت للمصطلح في غاية الإفادة من مختصٍّ مثله للغة العربية.

وقد يستخدم الأحرف اللاتينية لاستقامة النطق لأسماء بعض الأعلام الغربيين، مثل: "... العالم الشهير إيريك بيرد Eric C. Bird"[٢]، وهذا منهج جيد مقبولٌ في الكتابة، بعد كتابة العَلَم بالعربيَّة.

وربما يستخدم كلمةً أجنبيّةً مع وجود المقابل العربي، ككلمة كوبري Köprü التركية، الشائعة في استعمال المصريين، مثل: كوبري عباس[٣]، وكأنها صارت عَلمًا لاصقًا بذلك الجسر.

وفي المقابل هو ينعي على استخدام اللغة الإنجليزية في الإعلانات وربطها بالرفاهية، فقد كتب مقالًا لا يخلو من سخرية ينتقد فيه تلك الظاهرة التي شاعت في بعض مناطق القاهرة، عنوانه: (العمر الافتراضي لكلمة الـRe)[٤].

بعضُ الملحوظات اللغويَّة:

لا تخلو كتابةٌ من ملحوظاتٍ لغوية في الألفاظ أو في التركيب، وبعض هذه الملحوظات قد تستدعي النقاش في صحتها ويدور الجدل، ولكنَّ بعضها مما يحتاج الكاتب إلى أن يُدلَّ عليه. ومثلما أثنينا في مواضع كثيرة على طريقة عاطف معتمد في الكتابة والعرض، فإننا ننبّه على بعض الأخطاء اللغوية التي

(١) الحي القناوي Qenatown، ٩ إبريل ٢٠٢١.

(٢) هل تختفي الإسكندرية كما توقع رئيس وزراء بريطانيا؟! ٥ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) انظر: على كوبري عباس! ٣٠ نوفمبر ٢٠٢١.

(٤) نُشر في ٩ سبتمبر ٢٠٢١.

وردت في بعض النصوص، وهي قليلةٌ مقارنةً بسيل الكتابة الجيد، بل المحلّق في بعض الأحيان في مقالاته.

هذه الملحوظات منها ما يتعلق باللفظ، ومنها ما يتعلق بالتركيب. وهي في جملةٍ منها تندرج تحت الأخطاء الكتابية الشائعة.

من تلك الملحوظات حذف نون المنقوص المضاف، والمعروف من العربية إثباته، ورد هذا في قول كاتبنا: "الجونة هي ثان أكبر نموذج في سواحل مصر"(١)، يقصد: "ثاني أكبر".

ومنها ما هو اشتقاقي، كالمضارع من الفعل الأجوف في قوله: "هو الذي يصقل العقول ويصيغ المشروعات الفكرية للأجيال"(٢).

وربما نجد بعض المآخذ الإملائية اليسيرة، ككتابة الألف الممدودة مقصورة: "التي شدى بها محمد منير"(٣)، "التي شدى بها عبد الوهاب في "النهر الخالد"(٤)، "وما تلى ذلك من هجرة جماعية(٥)"، "مددت الخطى كي ألحق بمنير"(٦). والأصح: "شدا"، و"تلا"، و"الخُطا"؛ لأن أصلها الواو.

ومن الملحوظات في تعدية الأفعال –وهو من الاستعمال الشائع غير الدقيق– قوله: "حين وصلت جامعة الإسكندرية... حين وصلنا بيته أدهشتني تلك

(١) مستنقعات الجونة! ١٥ أكتوبر ٢٠٢١.
(٢) لماذا يحب الجغرافيون الأدب؟! ٢٥ أكتوبر ٢٠٢١.
(٣) يونس في بلاد الشوق، ١٩ نوفمبر ٢٠٢١.
(٤) شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.
(٥) النسوية في جغرافية النوبة! ١٨ نوفمبر ٢٠٢١.
(٦) يونس في بلاد الشوق، ١٩ نوفمبر ٢٠٢١.

الأشجار الكثيرة"[١]. والأدق: "وصلت إلى جامعة... وصلتُ إلى بيته"؛ فمن غير الحرف تكون بمعنى الصلة لا بمعنى الوصول.

ومن التعدية أيضًا قوله: "تعرفت على قصة بلزوني أول مرة في عام ٢٠٠٨ ... في ذلك الكتاب وفي غيره من الكتب نتعرف على مسيرة..." [٢]. والأفصح: "تعرَّفتُ إلى".

أما في التركيب النحوي فقد وقع ذلك قليلًا كذلك، في مثل قوله: "من يكتب تاريخ جديد لمصر؟!"[٣]. وهو يعني: "من يكتب تاريخًا جديدًا لمصر". ولعل السبب في كتابة المفعول به ونعته ساكنيْن هنا غلبةُ الطابع الخطابي؛ ومثل الدكتور معتمد ليس من عادته التي عرفناها الوقوع في هذا الخطأ الظاهر؛ وإنما غلبت عليه العاميَّة، وهذه يفعلها بعض الأساتذة حين يستحضرون الجمهور في أحاديثهم، فيؤْثرون التسكين على الإعراب، مع علمهم بموضع الحركة؛ كأنهم يستدرجون الأسماع إليهم. وليس في هذا اعتذارٌ للكاتب، فالخطأ خطأ على أية حال، وخصوصًا إذا كان الكاتب ممن يُحسن الفصحى كصاحبنا.

ومنها رفع الفعل في جواب الطلب: "دعني أزيدك في قصيدة المفارقة والتناقض بيتًا جديدًا"[٤]. والصواب جزمه: "دعني أزدْك". ومثله: "أو دعونا نقول بلغة لطيفة"[٥]. وصوابه: "أو دعونا نقل".

(١) مقال من غير عنوان، ١٩ سبتمبر ٢٠٢١.

(٢) ٢٠٥ سنة على واقعة البر الغربي! ٨ ديسمبر ٢٠٢١.

(٣) قنا... افتراق الطرق وتلاقيها! ٢٧ يناير ٢٠٢١.

(٤) الإسكندرية توقظ الحس اليساري في الجغرافيا! ٧ نوفمبر ٢٠٢١.

(٥) العمر الافتراضي لكلمة الـ Re ٩ سبتمبر ٢٠٢١.

ومنها حذف نون المضارع من غير سبب إعرابي: "حين ذهبا في ستينيات القرن العشرين يجمعا التراث الثقافي للنوبة"[١]، " قد ظلمت البحث الرائع الذي تجدوه كاملا في أول تعليق"[٢].

ومما قد يتوهَّم خطأً في تمييز العدد، وهو ليس كذلك، هذا العنوان: "205 سنة على واقعة البر الغربي!"[٣]، الذي قد يُعدُّ لحنًا أول وهلة، وتخريجُه أن يُقرأ على طريقة الآحاد أولًا: خمسٌ ومئتا سنةٍ.

ومنه هذه الصياغة الصحفية المحْدَثة: "بعضها البعض"، وهي شائعة جدًّا في الاستخدام المصري المعاصر، مثل: "بل تشكل مجموعات متلاصقة من هويات وجغرافيات غير متناغمة رُكِّبت إلى جوار بعضها البعض بشكل عشوائي"[٤]. والأفصح: "رُكِّب بعضُها إلى جوار بعض".

وأقل من ذلك تعريف لفظة البعض، وهي من المبهمات، كقوله: "وعند فم مفيض توشكى بالضفة الغربية لبحيرة ناصر أو "بحيرة النوبة" كما يفضل البعض"[٥]. ويمكن أن نخرج من هذا الأسلوب بنحو: "كما يفضل بعضهم" مثلًا، مثلًا، ونحوها.

ومما يشيع كثيرًا في الكتابات المحدثة الاستثناء بعد "رغم أنّ"، نحو هذا الأمثلة: "رغم ما يبدو من هجوم على مقالي إلا أنني لا أنكر الاتهام"[٦]، "ورغم أن الطريق خشن وغير مريح في السفر إلا أن السيارات"[٧]، "ورغم أن العمل

(١) الشمندورة! ٢٢ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) ٣٢٠٠ سنة على " النار العاتية" في أبو سمبل، ١٠ فبراير ٢٠٢١

(٣) نشرت في: ٨ ديسمبر ٢٠٢١.

(٤) العمر الافتراضي لكلمة الـ Re، ٩ سبتمبر ٢٠٢١.

(٥) ٣٢٠٠ سنة على " النار العاتية" في أبو سمبل، ١٠ فبراير ٢٠٢١.

(٦) ٣٢٠٠ سنة على " النار العاتية" في أبو سمبل، ١٠ فبراير ٢٠٢١.

(٧) من سيوة إلى كرداسة! ١٩ سبتمبر ٢٠٢١.

أدبي خيالي في جانب منه وتوثيقي في جانب آخر إلا أن بطلة الرواية كانت ممتزجة... "[١]...إلخ. والمخرج في نحو هذا استبدال إلّا بإنَّ: "ورغم أنّ العمل... فإنَّ بطلة...".

ومن تلك الأساليب المحدثة إلصاق فقط بليس، وحق "فقط" التأخير في الجملة، مثل: "هذه رواية أخرى مهمة للغاية، ليس فقط بسبب اللغة المحملة بالصور والأخيلة، وليس فقط بسبب ذاتية التجربة وعمق المخاوف والآلام عند أبطال الرواية ببراعة سلوى محسن، بل أهميتها..."[٢]. والأحسن: "ليس بسبب اللغة المحملة... فقط"، وهلمّ جرًّا.

ومنها الفصل بين "بل" وما بعدها بالواو: "بل ولم يتردد المهندسون آنئذٍ في تصوير رمسيس بأحجام ضخمة لا نظير لها بل ودسه بين الآلهة"[٣]. والأصح: "بل لم"، "بل دسَّه".

ومنها تكرار "كلما" وقوعًا تحت تأثير الترجمات الحرفية التي أذاعتْ هذا الخطأ: "كلما بعد زمن الأحداث كلما زاد الأثر النفسي"[٤]، "وكلما وجدت البون شاسعا بين مستواها البيئي والاقتصادي مع العاصمة كلما فهمت الكثير عن طبيعة التخطيط المركزي..."[٥]. والصواب حذف "كلما" الثانية.

ومما أجازه مجمع اللغة، وعارضه آخرون: العطف قبل الإضافة، وهو متكرر عند كاتبنا، فمن أمثلته: "تنتشر صور الشيخ الطيب في الأقصر في بيوت ومحال البسطاء"[٦]، "ضعف ورداءة مياه الشرب"[١]، "من يعرف قدرات

(١) صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١.

(٢) صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١.

(٣) ٣٢٠٠ سنة على " النار العاتية" في أبو سمبل، ١٠ فبراير ٢٠٢١.

(٤) كوفيد- ١٩ ينقذ "السيد"! ٢٤ يناير ٢٠٢١.

(٥) هل نسمع صوتا للأقاليم!؟ ١٣ ديسمبر ٢٠١٩.

(٦) الطيب وبلاد طيبة! ٧ ديسمبر ٢٠٢١.

ومقومـات محافظـة البحـر الأحمـر"[٢]، "أن أول وأشـهر مـؤذن فـي الإسـلام"[٣]. "الذي يطلق علـى أشـهر وأكبـر هضـبة"[٤]، وفـي مقالـةٍ واحدة ورد هذا الأسلوب ثـلاث مـرات متواليّـة فـي فقرةٍ واحـدة، مـا يشكّل نـزولًا أسـلوبيًّا فـي هذا الموضـع: "وليس التجديف اليدوي أو فرد وطي الشراع... لا أنسى حزن وتذمر أحد رؤساء مراكب الصيد في دمياط... والسبب ذلك الجهاز الملعون (في نظره) المسمى GPSالذي أبطل خبرة ومهارات ريس المركب"[٥].

إنَّ أسـلوب الحـذف قبـل الإضـافة –وإن أجيـز مـن قِبَـل المجمـع– ينبغـي ألّا يُستكثر منه؛ فالأولى اتّبـاع مـا عليـه العربيّـة العاليـة من نظـام، وليس فـي هذا بُعْدٌ عن التحديث، إذ التحديث غالبًا مـا يكون فيمـا بعد النظـام التـأليفيّ للجملـة الذي استقرّتْ عليه العرب، وللمبدع بعد ذلك أن يُبدع ما شاء.

ومـن الملحوظـات المعنويـة الترتيـب بين "يجـب"، و"لا"، مثـل: "لا يجـب أن تتـرك الدولـة هـذه المشـكلة لـرأي الأفـراد... لا يجـب أن تتـرك الدولـة كـل شـيء للعرض والطلب"[٦]. والمقصود: "يجب ألّا"، وفرقٌ شاسعٌ بينهما.

إننا ونحن نكتب هذه الأمثلة التي تبدو متكاثرةً، وننقدُها –وقد يثير بعضُـها نقاشًا مخالفًا– ليس همُّنا الترصُّد أو التقعُّر في اللغة، بل إنَّ غايتنا تهذيبُ مثل هذا النـوع الجيد من الكتابـة الأدبيـة الرشيقة التـي يكتبهـا عـاطف معتمد وأمثالُـه، وهل النقد إلا نوعٌ من البناء والتحسين في الفَهم الصحيح له!

=

(١) الإسكندرية توقظ الحس اليساري في الجغرافيا! ٧ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) الحي القناوي Qenatown، ٩ إبريل ٢٠٢١.

(٣) مئذنة بلال! ١١ فبراير ٢٠٢١.

(٤) أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟ ١٨ مارس ٢٠٢١.

(٥) مئذنة بلال! ١١ فبراير ٢٠٢١.

(٦) ٢٠٥ سنة على واقعة البر الغربي! ٨ ديسمبر ٢٠٢١.

إنه من حشو الكلام القول: إن مثل هذه الملحوظات الصغيرة لا تستنقص من الجهد الضخم، والكتابة العريضة التي كتبها عاطف معتمد بحرفٍ عربيٍّ فصيح، وأسلوبٍ آسرٍ ممتع، وإنها –لمن لا ينتبه– لا تكاد تُرى على الحقيقة، ولكنَّ الناقدَ بصير.

عَلامات التَّرقيم:

تؤدي علامات الترقيم في الكتابة الحديثة وظائف معنويةً مكمّلة للنص، ولا نُبعد إن قلنا إن علامات الترقيم جزءٌ من الرموز الكتابية التي لا غنى عنها إن أحسن الكاتب تشغيلَها، فهي ليست زينةً شكليّة، أو ضرورةً هامشية إن شئنا وضعناها وإن شئنا تركناها.

استخدم عاطف معتمد بعض علامات الترقيم في كتابته، وإن كنَّا نرجو أن يتوسَّع في المستقبل في استخدامها. إذا استبعدنا العلامتين السائدتين في جُلِّ كتابات الكُتّاب في العصر الحديث، وهما الفاصلة والنقطة؛ فإننا سنجد عاطف معتمد مقتصدًا في استخدام علامات الترقيم، ولا نراه يُدير في كتابته إلا علامتين أُخريين أو ثلاث علامات...

علامة التعجب (أو الانفعال) غالبةٌ عند كاتبنا، في العناوين لديه على الخصوص، تكاد لا تخفى على متابع للمقالات. وهو يستخدمها أحيانًا في وظيفتها، وأحيانًا يستزيد منها فتقع كالحشو. ومع ذلك فهي تدل على انفعال داخلي يريد الكاتبُ إيصالَه للقارئ، حتى لو لم تنشأ في موضعها الكتابيِّ النظريّ.

وكثيرًا ما كانت علامة الانفعال هذه مرافقةً علامة الاستفهام للدلالة على السؤال التعجبي، أو السؤال الإنكاري. ولكن الغريب أنها يُقحمها أحيانًا في السؤال الحقيقي، مثل: "أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟"[(١)]. وقد قلنا إنه يكثر منها لأغراضٍ في نفسه يريد للقارئ أن يطلع عليها. ونحن نؤمن أن

(١) أيهما تفضل: ملل الوقار أم بهجة الهلاوس!؟ ١٨ مارس ٢٠٢١.

استخدام علامات مسألة ذوقية تعود لكل كاتب تبعًا للمعاني النفسية التي تعتملُ في نفسه، ومع هذا فثَمَّ حدٌّ أدنى من الضوابط لاستخدام تلك العلامات. وكاتبنا قد يُسرف أحيانًا في استخدام تلك العلامة.

وأيضًا يستكثر من علامتي التنصيص في موضعها وفي غير موضعها، فمرةً يضعهما لتنصيص نص، وأخرى يضعهما لعنوان كتاب، أو اسم كاتب، بما لا حاجة بنا إلى التمثيل عليه لكثرة ذلك في مقالاته.

كما يستخدم القوسين الهلاليّين في موضعهما عند التفسير أو الشرح في متن النص، مثل: "أما الحقبة التي يدرسها هذا الكتاب فتشمل الأعمار الجيولوجية من زمن الحياة القديمة (الباليوزي) والحياة الوسطى (الميزوزي) والحياة الحديثة (السينوزي)"[(١)].

ويستخدم النقاط الثلاث لا للدلالة على الحذف كما هو مصطلحٌ عليه، بل للدلالة على التمهُّل الطويل حال القراءة، أو السكت كما في رسم المصحف، مثل: "أسوان... الشلال x الخزان!"[(٢)]. ونحن لا نؤيّدُه على هذا الاستخدام؛ لاستقرار معنى هذه العلامة على الحذف.

ويستخدم النقطتين الأفقيّتين (..)، وهما مما لم تنصّ عليهما كتب الإملاء والترقيم، وثَمَّ دعوات إلى اعتمادهما في إملائنا الحديث لتفشّي استخدام كبار الكتّاب لهما، ولدلالتهما في الحقيقة على معانٍ أخرى لم تفِ بها علامات الترقيم القائمة، أهمّها الانتظار أو التمهُّل حين يطلبهما الكاتب في القراءة، مثل: "عذرًا.. تجاوزت هذا الصباح الألف كلمة بعشرين كلمة!"[(٣)]، وهي هنا تختلف عن الفاصلة التي تفيد الانتظار المتساوي، لا الانتظار الأطول من انتظار الفاصلة كما في النقطتين.

(١) أحدث مجلد عن جيولوجية الفانيروزي وموارده الطبيعية في مصر. ٣٠ ديسمبر ٢٠٢١.

(٢) أسوان... الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) الشمندورة! ٢٢ نوفمبر ٢٠٢١.

ثالثًا: النَّصُّ المُوَازي

العَتَبات (Paratextes) عند چنيت[١]، أو (النص الموازي) كما عرّب فحواه بعض الباحثين، هي: "العناصر الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن، تتصل به اتصالًا يجعلها تتداخل معه إلى حدٍّ تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتنفصل عنه انفصالًا يسمح للداخل النصي، كبنية وبناء، أن يشتغل وينتج دلاليته"[٢]. واستحسن بعضهم ترجمة هذا المصطلح إلى "النص المصاحب"[٣]؛ أو "الملحقات النصية"[٤].

إنَّ محاولات الترجمة تؤول إلى الإشارة إلى أن هذا النصّ المصاحب أو الملحق بالنصّ الأصليّ إنما هو مكمّلٌ للمعنى الذي يريده الكاتب وليس زائدًا عليه، فبسواه لا يتمّ أداء الرسالة المرجوّة كما ينبغي، وبه يستكمل النص أدواته الشكليّة والمضمونيَّة كما يريدها الكاتب للنصّ، وهو المسؤول في النهاية عن مدى الغاية الإبلاغيّة في نصّه من خلال تلقي الجماهير.

إن النص الموازي بأنماطه المتعددة ووظائفه المختلفة، هو كل نصٍّ تكون فيه العلاقة بين نص أصلي هو المتن ونص آخر (ولفظةُ نصٍّ هنا تجاوزيَّة) يقدِّم له أو يتخلله، "مثل: العنوان المزيف، والعنوان، والمقدمة، والإهداء،

---

(١) انظر:

Genette, Gérard (1997). Paratexts: thresholds of interpretation. Cambridge: The University of Cambridge. pp. 1–2.

(٢) الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها، للدكتور محمد بنيس ص٧٦ (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١/١٩٨٩م).

(٣) انظر: النص الموازي وخطاب الميتالغة في ملحمة السراسوة (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، السنة ٢٠١٩م، العدد ٣١، الجزء ٢).

(٤) انظر: أزمة المصطلح في النقد الروائي العربي، مجلة الفكر العربي، بيروت، السنة ١٧، العدد ٨٣، سنة ١٩٩٦، ص ٨٤).

والتنبيهـات، والفاتحـة، والملاحـق والـذيول، والخلاصـة، والهـوامش، والصـور، والنقـوش، وغيرهـا مـن توابـع نـص المـتن والمتممـات لـه، ممـا ألحقـه المؤلـف أو الناشـر أو الطـابع داخـل الكتـاب أو خارجـه، مثـل: الشـهادات والمحـاورات والإعلانـات وغيرها"[١]. إنَّ هذه الأنماطَ (النصوصيَّة) لم تكن غائبةً في التراث العربـي القديم حين كان يجعلون للنصّ في إخراجه النهائيّ المخطوط: "دواخلَ" تشمل النصّ نفسَه، و"خوارج" يعنون بها كل ما يتصل بالنصّ مما ليس من متنه، كالتجليـد، والـورق، والمـداد، والزخرفـة، والتـذهيب، والتصـاوير، والتملّكـات، والتوقيعات، والتصحيحات، وغيرها[٢].

يشمل النص الموازي إذن عتباتٍ وملحقات تساعدنا على فهم خصوصية النص الأدبي، وتحديد مقاصده الدلالية والتداولية ودراسة العلاقة الموجودة بينها وبين العمل. إنَّ للنص الموازي وظيفتين: "وظيفة جمالية تتمثل في تزيين النصّ وتنميقه، ووظيفة تداولية تكمن في استقطاب القارئ واستغوائه"[٣].

يمكننا تناول النص الموازي في مقالات عاطف معتمد من خلال: العنوان –وقد سبق الحديث عنه باستفاضة–، والصور بأشكالها المختلفة: الفوتوغرافية بأنواعها التي التقطها الكاتب بنفسه أو غيرها، وصور أغلفة الكتب والشخصيات؛ والخرائط بأنواعها؛ وفي تفاعله مع جمهوره من القرّاء في التعليقات والمشاركة وغيرها مما تمنحه وسائل التواصل الحديثة.

---

(١) في التعالي النصي والمتعاليات النصية، لمحمد الهادي المطوي (المجلة العربية للثقافة، تونس، السنة ١٦، العدد ١٩٩٧/٣٢، ص ١٩٦).

(٢) معجم مصطلحات المخطوط العربي (معجم كوديكولوجي)، للدكتور أحمد شوقي بنبين والدكتور مصطفى طوبي ص١٥٥ (الخزانة الحسنية بالرباط، ط٢٠٠٥/٣م).

(٣) لماذا النص الموازي؟ للدكتور جميل حمداوي، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم: (https://cutt.us/YuqBe).

الصُّورة الفُوتوغرافيَّة:

تمثل الصورة (الفوتوغرافية) المُرفق الأول المهمّ في مقالات عاطف معتمد، أو –بتسمية چنيت– النصّ الموازي الأبرز في تلك المقالات، إذا استبعدنا العنوان من غير شك.

اهتم عاطف معتمد بتدعيم مقالته بعديد من الصور، سواء تلك التي صوّرها بكاميرته –وهي كثيرة– أو تلك التي اقتبسها من مصادر أخرى.

إنه يستخدم عبارة: "أخذت الصورة المرفقة من ..."، حين تكون الصورة من التقاطه هو، وقد تكرّرت هذه الجملة في مقالاته المدروسة عشر مرات، أي في نحو نصف الصور المرفقة، وهذا يدلُّ على جُهدٍ ميدانيٍّ ضخم، فهذه الصور قد تكون في أقصى صعيد مصر، أو في بلاد النوبة، أو جبال الصحراء الشرقية، أو على ساحل مصر الشماليّ؛ لقد كُتبت هذه المقالات بالعلم والعَرق والقلم.

لقد بلغ تعداد الصور ٢١ صورةً في المادة المدروسة (٥٦ مقالة)، بنسبة (٣٧,٥%)، وهي نسبةٌ ليست قليلةً، ولا سيما إن وضعنا في الاعتبار ملحقًا آخر، هو الخرائط الذي سنراه يمثل نسبة ٢٥%، أي أن كاتبنا يعتمد على إرفاق ملحقات فيما يزيد على نصف مقالاته.

لقد بلغ من أهميَّة الصورة في المقالة أنه قد يبني عليها مقالَه، فهو يضعها ليجعلها أساسًا يعتمد عليه في إزجاء المقالة، وإنمائها، فهو يُحيل عليها الفينة بعد الفينة، أو هو يبدأ بها ويُنهي بها، ويطلب من القارئ أحيانًا أن ينظر إليها وهو يقرأ مقالَه(١).

(١) انظر مثلًا: اللغة والبيئة! ٦ فبراير ٢٠٢١.

إنه –وهو يلتقط صوره ليجعلها في مقاله– لا يلتقطها على عواهنها، بل يختار لها الزاوية التي يريدها لمقاله؛ إنَّ من أعاجيب تلك الزوايا أنه يلتقط الصورة لِتبدوَ كالخريطة في بعض الأحيان، ممهدًا للجمع بين الفنّين: فن رسم الخرائط وفنّ التصوير، لقد غلبتْ حاسّتُه الفنيَّةُ عليه وهو يكتبُ وهو يُصوِّر.

إن اعتماد الكاتب في كثيرٍ من مقالاته على الصور التي يلتقطها بنفسه هو نوعٌ من الاعتزاز الفكري؛ حيث لا ينتظر أن يأخذ الصور من المراجع، وفي هذا فائدةٌ أخرى؛ فإن زيارته للمكان بنفسه، ثم اقتباس الصورة من الزاوية التي يراها ملائمة؛ لَأمرٌ في غاية الخطورة، وفي غاية النفع العلميّ، والإشباع النفسيّ، وحين يكتب الكاتبُ بَعْدُ عن هذا المكان، مرفقًا صورته تلك، سيكون الصدق الفنّيُّ ملءَ حِقْويه. فمثلًا، بعد أن صوّر الكاتب صورةً فوتوغرافيَّةً رائعةً لنيل أسوان كتب على إثرها مقالَه: (الجزيرة المحرَّمة تعود للشعب)، قال فيه: "أخذت الصورة المرفقة من البرِّ الغربي لأسوان من التل الشهير المعروف باسم "أبو الهوا". لا تصح زيارتك لأسوان إلا بصعود هذا التل ورؤية أسوان من هذه الزاوية النادرة التي تكشف لك معالم النيل الأسطوري"(١). وفي هذه العبارة بيان لقيمة تلك الصورة من المكان، وبيان قيمتها البالغة في المقال.

إنَّ تجهيز عاطف معتمد لمقاله لا يبدأ قبل الكتابة فحسب، بل قبل البحث الميداني حين يختار المكان الجغرافيّ المرادَ الكتابة عنه، ثم زيارته وتأمُّله بعين الخبير، ولقاء أهله الذين يعيشون عليه، وقراءة البحوث والنصوص التي كُتبت عنه، عربيّها وأجنبيّها، ومقارنة بعضها ببعض، واستخراج النتائج التي يُرجّحها بالبحث والواقع المشاهَد أمامه، ودراسة آثاره التليدة وعمارته الحديثة، ثم ينقل ذلك

(١) الجزيرة المحرمة تعود للشعب! ١٢ فبراير ٢٠٢١.

كلَّه صورةً حيَّةً مُبْهجةً للأدب الجغرافي، في لغةٍ شفيفةٍ رشيقة تعي أصول الكتابة المقاليَّة.

تتنوّع أشكال الصورة الموازية لنص عاطف معتمد بين:

١- صورٍ للمدن ومناظرها الطبيعية، والعمارة فيها: القديمة والحديثة.

٢- وصورٍ للشخصيات.

٣- وصورٍ لأغلفة الكتب.

٤- وثَمَّ صور توضيحية.

تكاد صور المدن والعمارة الملحقة بالمقالات أن تغلب على بقية الصور، ففي مقالة بعنوان: (هل تختفي الإسكندرية كما توقع رئيس وزراء بريطانيا؟!)[١]؛ أرفقَ صورة جوية لمدينة الإسكندرية. وفي مقالةٍ أخرى لاحقة كتبها بعدها بيومٍ واحد بعنوان: (هل تختفي إسكندريتنا ؟!) يقول: "أخذتُ الصورة المرفقة الشهر الماضي من كورنيش الإسكندرية"[٢]. وهي صورة لحواجز الأمواج الخرسانية المُلْجمة لشاطئ الإسكندرية.

ويبدو أنّ الإسكندرية قد حازت النصيب الأوفى في هذا الجانب التصويريّ، فقد أرفق صورًا لها أخرى في مقالاته عنها، كما في مقاله: (الإسكندرية...مرآة البحر!)، يقول: "أخذتُ الصورة المرفقة من شرفة الغرفة "٣" من فندق ميرامار الذي كان مسرحا لقصة نجيب محفوظ الشهيرة عند منعطف تاريخ مصر الاجتماعي، وهي تودع العهد الملكي مندفعة إلى العهد الجمهوري"[٣]. وفي مقال: (الإسكندرية... الحضارة في العمارة)، يرفق صورةً عالية الجودة يكتب عنها: "أخذت الصورة المرفقة لواحدة من عمائر حي الرمل

(١) هل تختفي الإسكندرية كما توقع رئيس وزراء بريطانيا؟! ٥ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) هل تختفي إسكندريتنا؟! ٦ نوفمبر ٢٠٢١.

(٣) الإسكندرية...مرآة البحر! ١٠ نوفمبر ٢٠٢١.

في غرب الإسكندرية. لا يقل عمر هذه البناية التي تطل على البحر عن قرن من الزمن[١] .

في مقال عن النوبة كتب: "في الصورة المرفقة التي حصلت عليها من أحد إصدارات المتحف البريطاني من بعثات وحفائر في بلاد النوبة تبدو آنية فخارية تعود لألفي سنة مضت ولا تحتاج لتعليق عما يتميز به أهل النوبة من رمي السهام"[٢]. وفي هذا –علاوةً على أيقونيّة الصورة– توثيق علمي في مقالة جماهيرية في مواقع إلكتروني، آيةً على خلق أمانة العلم الذي أشرنا إليه من قبل.

في مقالةٍ أخرى يأسى فيها لحال الفيّوم استعان بصورتين للمقارنة بين زمنين: ماضي تليد، وحاضرٍ مزعج[٣].

يرعى كاتبُنا الأخلاق الحميدة في هذا الجانب، فهو يعرف الحقوق الشخصيَّة في التصوير، إذ تراه يذكر صراحةً أنه استأذن صاحبة صورةٍ ما كي يصورها ويَضمن موافقتها على النشر ويُثْبت ذلك في مقاله[٤]. ويهتم بالحقوق الأدبية (الفكرية) فهو دائم الإحالة على مصادر الصورة التي لم يلتقطها بآلته. إنه لدرسٌ تجدر الإشادة به في مثل هذا الفن الكتابيّ، الذي قد يُظن به التساهل كونه قد أُخرج من عباءة الأكاديميّة، وانتقل إلى ساحات الصحف والمدوَّنات الرقميَّة الجماهيريّة.

يُرْدِفُ كاتبنا نصَّه في بعض الأحيان صورَ الشخصيات، وكأنه يعقد صلةً بين الجغرافيا والبشر الذين يعيشون في الأرض، ففي مقالاته المتتابعة عن النوبة

(١) الإسكندرية... الحضارة في العمارة، ١١ ديسمبر ٢٠٢١.
(٢) النوبة: بلاد الذهب أم أرض النبال؟! ١٧ فبراير ٢٠٢١.
(٣) هل نسمع صوتا للأقاليم!؟ ١٣ ديسمبر ٢٠١٩.
(٤) النسوية في جغرافية النوبة! ١٨ نوفمبر ٢٠٢١.

يختار هذا العنوان لواحد من مقالاته: "النسوية في جغرافية النوبة "، ثم يُرفق به صورة لامرأة نوبية، ويبني عليها مقالَه. وهو حريصٌ على تحديد الوقت في إشارةٍ إلى حيويَّة ما يكتب، ويذكر اسم السيدة كما أسلفنا، ولا يترك قارئه للظنون فيبيّن له أنه إنما استأذنها فقبلت نشر هذه الصورة في صفحته، يقول: "أخذتُ الصورة المرفقة الأسبوع الماضي، للسيدة الكريمة "فاطمة" من إحدى قرى النوبة في كوم أمبو، وسألتها إن كانت توافق على نشرها على صفحتي فرحبت، واستعجلتني في إنهاء التصوير كي تلحق بإعداد الطعام لأن الرفيقات ينتظرن أن تجلب لهن "الدوكة" التي تحملها هنا على رأسها"[١].

فهذا المقال إذن مثالٌ على قيمة الصورة في بنائه، إنها قيمةٌ تأسيسية، حيث لا تُلحَق الصورة بالمقال، بل يُلْحَق المقال بها، في مزيج مُعْجِب بين الفنون يصطنعه عاطف معتمد.

وأحيانًا تكون الصور في المقالات تكميلية لا تأسيسية كما في هذا المقال بعنوان: (الكلمة التي حيرتني!)[٢]، حيث أرفق صورتي عمر طوسون والبابا يوأنس في إطار عرضه كتاب عمر طوسون (وادي النطرون).

وثَمَّ لون آخر من الصور الملحقة بالنص، منها صورٌ لأغلفة بعض الكتب التي يعرضها للقارئ، مثل إرفاقه صورة غلاف رواية: "مناسك الخوف"[٣] في مقاله النقدي عنها، وعرضه صورة الغلاف لكتاب عمر طوسون المشار إليه منذ قليل.

وفي مقالٍ بعنوان: (اللغة والبيئة!)؛ يشرح لنا فيه معنى النقش الذي احتفظت به اللغة المصرية القديمة الذي يصور مركبًا مفرود الشراع في مقابل

(١) النسوية في جغرافية النوبة! ١٨ نوفمبر ٢٠٢١.

(٢) الكلمة التي حيرتني! ١٦ سبتمبر ٢٠٢١.

(٣) صورة الريف الذي تداهمه مناسك الخوف! ٢٥ سبتمبر ٢٠٢١.

المركب الذي طُوي شراعُه، مرفقًا صورتين لهذين الرمزين من الهيروغليفيَّة.[١]. وذلك لكي يضمن تمام المعنى المراد إيصاله، وليُضفي على مقاله جانبًا من المتعة.

الخَرائـط:

لم تغب الخريطة عن مقالة عاطف معتمد ولكنها لم تكن طاغية، بل لم تكثر الكثرة المتوقَّعة من أستاذ جغرافيّ، ذلك أن مفهوم الجغرافيا لدى الكاتب يتجاوز تصوُّرَنا عن هذا التخصص، وربطه في العقل الباطن بالخرائط، ولعل هذا الاقتصاد النسبيّ في استدعاء (الخريطة) في كتابات عاطف معتمد متعمّدٌ لهذا الشأن، أي لمحاولة ترسيخ المفهوم الواسع والشموليّ لتخصص الجغرافيا، الذي يشمل المكان ومن يعيش في المكان، في الماضي والحاضر، وتأثيرُ كلٍّ في كل: ثقافيًّا واجتماعيًّا وأنثروبولوجيًّا ... إلخ.

بلغ عدد الخرائط الملحقة بالمادة محل الدراسة (١٤ خريطة) من مجموع ٥٦ مقالة (أي ٢٥%)، ومع أن هذا العدد ليس بالقليل في ذاته، ولكنه ليس كبيرًا إذا قيس بعدد المقالات، أو بوسيلةٍ ملحقةٍ أخرى استعان بها الكاتب، أعني الصورة على الخصوص، وكأنّ الكاتب رأى في (الصورة) جماهيريّة أكثر من الخريطة، فعمل على حماية تلك الجماهيرية، وفي الوقت نفسه لم يُهمل ذلك القسم من الجمهور الذي يرى فيه الأكاديمي الجغرافيَّ فحقق له طموحه، أو هو يرى واجبًا تجاه اختصاصه أن يُبرزه ويُذيعه في بعض الأحيان، أو هو غلبة الطبع الجغرافي على رجل معجونٍ بالجغرافيا، والحق أنه كل ذلك جميعُه.

في حديثه عن مدينة أسوان التي يعشقها استعان بخريطةٍ إنجليزية قديمة أرفق صورتها، رُسمت سنة ١٩٤٠م[٢]، ويعلل ذلك بأنه قد حدثت تحوُّلاتٌ

(١) اللغة والبيئة! ٦ فبراير ٢٠٢١.

(٢) أسوان...الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

عمرانيّة كبيرة في المدينة، أحوجتنا إلى الرجوع إلى هذه الخريطة لمعرفة المعالم التي اندثرتْ في المنطقة.

كانت مقالته تلك بسبب السيول التي اجتاحت أسوان في تلك السنة، ولقد أتبعها بمقالةٍ أخرى أرفق بها خريطة تظهر عليها معالم أسوان وكوم أمبو ونهر النيل هناك وبحيرة ناصر، وكأنها انعكاس للمقالة التي عاتب فيها المسؤولين على اهتمامهم بمدينة أسوان على حساب أسوان الكبيرة، ولقد كتب في خاتمة مقاله: "أنا لا أحب مدينة أسوان وحدها، بل أسوان كلها: أبو الريش، الخطارة، الأعقاب، الجعافرة، دراو، وكوم أمبو.. وعشرات أخرى من البلدات والقرى"(١).

يُرفق خريطةً أخرى غير معقّدة لموقع مدينتي: العَلَمين والجونة، في مقالٍ يتحدث عن تحويل المستنقعات إلى بحيرات في كل من مارينا العلمين والجونة(٢). ومع أن الخريطة تظهر المدينتين فإنني أرى أن هذا الإلحاق ليس مفيدًا كما كنا نأمل، إذ إنه لا يُضيف جديدًا إلى فحوى المقالة، فهو يقتصر على الإشارة إلى العامة إلى موقع المدينتين، وليس إلى موقع المارينا في كلا المدينتين، وهو موضوع المقال الذي نحتاج إلى معرفته بهذه الإضافة الإلحاقية.

لكنّ هذا النقد لا ينطبق على الخريطة المبسّطة التي توضّح موقع الكونتيلّا على الحدود الشرقية لمصر في مقاله: (رصاصة واحدة في جيبي!)(٣)؛ فهذا الموقع غير مشهور لدى عموم القرّاء، كما أنه حقق المراد بمعرفة مكان الأحداث التي هي موضوع المقالة. كما أنه لا ينطبق على الخريطة المرفقة التي تبيّن موقع جبل الشايب في مقاله عنه(٤). ولا ينطبق على عددٍ غير قليل من

(١) أسوان.. خجل كان يمكن تجنبه! ١٤ نوفمبر ٢٠٢١.
(٢) مستنقعات الجونة! ١٥ أكتوبر ٢٠٢١.
(٣) رصاصة واحدة في جيبي! ٦ أكتوبر ٢٠٢١.
(٤) شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.

الخرائط على هذا النحو، هدفه منه تغذية ثقافة عموم القارئ الجغرافية التي تتسم غالبًا بالأوليَّة، كدبّوس غرزه في موضع (نكلا العنب) في الخريطة[١]؛ حيث لا تكون واضحة لغير المتخصص على أغلب الظنّ.

وفي مقالة (كلابشة)[٢] أفادتنا الخريطة كل الإفادة حيث عبّرت عن المعنى المطلوب تعبيرًا خرائطيًّا ممتازًا إن جاز لنا التعبير، حيث نرى الجانبين الصخريّين يُطْبقان على النيل كالكلابشة المعروفة بحق. وهذا مثال فصيح يظهرنا على العلاقة المهمّة بين الملحق والأصل.

لا يكتفي عاطف معتمد بنقل مصوراتٍ للخرائط، بل يُعمل فيها يدَه في بعض الأحيان، فيضع بصمته حتى يوضّح ما يُثري مقالَه، خير مثالٍ على ذلك مقاله: (الباشا يراقب الإسكندرية بفاصل ٤٠ دقيقة!)[٣]، وفيه يتحدث عن التلغراف الهوائي الذي أنشأه محمد علي باشا بين القاهرة والإسكندرية لإدارة الشؤون السياسية والحربية، "كانت العلامات والإشارات تنقل من برجٍ إلى آخر عبر تليسكوب ينظر منه أحد العمال المختصين فيرى الإشارات والعلامات الرمزية فينقلها لزميله في ذات البرج فيعيد الأخير ضبط إشارات برجه لتنقل إلى البرج التالي الذي يتابع الرصد بنظارة التليسكوب أيضا. الرسالة التي ترسل من القاهرة إلى الإسكندرية أو العكس كانت تستغرق ٤٠ دقيقة فقط.. وهو ما عُدَّ فتحًا جديدًا في وسائل الاتصال"[٤].

يحكي الكاتب عن عمله في الخريطة فيقول: "إذا رجعت إلى الخريطة المرفقة ستتعرف على مواقع الأبراج مسلسلة من (١) في القلعة في القاهرة حيث

(١) مسافر إلى "تكلا العنب". ٧ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٢) كلابشة.. الخوف والرجاء! ١٥ فبراير ٢٠٢١.

(٣) الباشا يراقب الإسكندرية بفاصل ٤٠ دقيقة! ٦ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٤) المصدر نفسه.

يقيم محمد علي وصولا إلى رقم (١٩) في الإسكندرية التي كانت نافذة مصر على كل ما يجري في أوروبا عبر عالم المتوسط: أبراج الإشارة الـ ١٩ هي: (١) القلعة (٢) بولاق (٣) أبو الغيط (٤) زفيتة ..." إلخ[١].

الجُمهور والتَّفاعل:

لا يغيب عنَّا أن كثيرًا من التعليقات في الفيسبوك وغيره من وسائل التواصل الاجتماعي قائمٌ على المجاملة، بل ربما يصل الأمر إلى المداهنة وزيف القول، وكثيرٌ من تلك التعليقات عاطفيٌّ لا علميّ. ومع ذلك فإنني أزعم أنَّ هذه التعليقات كاشفةٌ حين تكون بأعداد ضخمة، وحين تكون من أطيافٍ ذوي مشارب شتَّى، وحين لا تربطها بالكاتب رابطةٌ شخصية من قريب أو بعيد، وحين تُجْمِع كلها –أو تكاد– على الإعجاب أو الدهشة أو السعادة والحبور بما يقرؤون، أو نحو ذلك من المعاني الجارية في هذا الوادي.

ولو أخذنا مثالًا واحد كمقال (شابت على أرضه الليالي)، لرأينا تعليقات القراء التي بلغت مع الردود ٩٥ تعليقًا، من نحو (وأنا هنا أقتبسها عشوائيًّا وأسوقها بحروفها)[٢]:

"أبدعت.. – مقال ممتع كالعادة شكرا دكتور – السّرد يا دكتور....ما أروعك فيه أنا قريت البوست وكإني شايفة كل المذكور فيه – دامت موهبتك....تحياتي – ليه الجغرافيا مكنتش كده أيام ما كنا بندرسها طيب !! الله يسامحكم – تحية لك ولكل تلاميذ جمال حمدان ومحسوب، وكل من يعرف قيمة هذه الأرض، ويمزج بين الجغرافيا التي تساوي أرض الوطن، وبين مبدعيه الذين أحبوا ترابه، وتغنوا به – حضرتك أديب جغرافي ولا جغرافي متأدب...مع

(١) الباشا يراقب الإسكندرية بفاصل ٤٠ دقيقة! ٦ سبتمبر ٢٠٢٠.

(٢) انظر: شابت على أرضه الليالي! ١٧ إبريل ٢٠٢١.

حضرتك نتعلم منك الجغرافيا وكأنك تسرد لنا قصص ألف ليلة وليلة.. – تحياتي وسلامي سعادة الدكتور، ذكرتنا بقصيدة محمود حسن إسماعيل وصوت عبد الوهاب الرخيم وبالصديق الغالي الراحل أحمد عبد العال رحمه الله رحمة واسعة، متعكم الله بالصحة والعافية – والله، مقالاتكم هي التي تسكرنا، يا دكتور عاطف. محبتي. – حبينا جغرافيا مصر على إيدك يا دكتور – كنا نتعلم الأدب والجغرافيا بنوع من الجفاء ، لكنكم تمزجون الأدب بالجغرافيا فأحببنا الجغرافيا الأدبية والأدب الجغرافي ، أما بالنسبة للصديق والأخ الحبيب صبري محسوب رحمه رب العزة رحمة واسعة وغفر له وأسكنه الجنة فيحتاج منكم والدكتور محمد زهرة رحمة الله مقالين منفصلين لأنهما أدباء جغرافيون والعكس صحيحة ، بارك الله في عطائك ودام أبد الآبدين – ياريت لو حضرتك تجمع هذه المقالات القيمة فى كتيب صغير يجعل من الجغرافيا مادة شيقة لكل الناس".

ونحوٌ من هذه التعليقات تراه في عامة مقالاته، ولا نحب أن نثقل البحث بنقل الكثير من ذلك، إنما يكفي ما مثَّلنا به.

لقد حققت هذه المقالة في صورةٍ أخرى من صور التفاعل الجماهيريّ ٩٥ مشاركة من القرّاء في صفحاتهم، ومعلومٌ أن هذه المشاركات تضمن عددًا آخر من القرّاء والمعلقين كذلك. ولا يخفى على أهل الخبرة أن القراء غير المعلقين وغير المشاركين أضعاف هؤلاء.

كما بلغت رموز التفاعل على المقال ٧٤٥ تفاعلًا حتى وقت هذه الكتابة، مقسّمةً على: ٥٣٢ أعجبني، و١٩٥ أحببته، و١٧ أدعمه، ومندهش واحد.

إن هذه الأرقام دالّةٌ من غير شك على جماهيريّة المقالات، وهي حسبةٌ رياضية تقفنا نحن القرّاء وتقف الكاتب على مدى وصول كتاباته وانتشارها، ومدى انفعال القرّاء بها، وألوان هذا الانفعال، وما الذي يحبونه، وماذا ينتقدون: نقضًا، أو تصحيحًا، أو تذييلًا، أو تعليقًا عاطفيًّا فحسب.

فحتى وقت كتابة هذه الكلمات بلغ عدد متابعي صفحته (٨٩٤٦١) شخصًا، أي قرابة التسعين ألفًا، في تصاعد مستمرّ، وهو رقم كبير لأستاذٍ جغرافي، لكنْ سرُّه في الأدب!

إنَّ الالتفات إلى الجمهور في المقالة أمرٌ ضروريّ، فالمقالة فَنٌّ جماهيري بامتياز، فإذا كانت الخطابة فن الجمهور المسموع، فإن المقالة فنُّ الجمهور المكتوب في هذا العصر، إنه ذلك الفنّ الذي يأتيه الجمهور كل يومٍ ليقرؤوه، والفنُّ الذي ينتظره القرَّاء من الكاتب، فإذا تأخّر يومًا سألوا عنه –وهذا ما حدث كثيرًا حين تخلَّف الدكتور عاطف عن موعده الكتابي– وهذا بخلاف غير المقالة من الفنون الأدبية التي يقصد إليها كاتبها أولًا، ثم يبحث عن جمهوره بعد ذلك.

إن الكاتب الذي ينجح جماهيريّا في مقالة أو مقالتين أو بضع مقالات يستحثُّه قرّاؤه على المزيد، وهذا وحدَه وقودٌ كافٍ في إذكاء نار القلم في يد الكاتب وروحه ونفسه؛ فلا يفتر حتى يُنتج الكتابة، وهو ما يُفسّر هذا التدفق الهائل عند الدكتور عاطف وعند غيره من كُتّاب المقالات اليومية أو الدَّورية، أنه يعرف أن ثَمَّ موعدًا، وأن هناك من ينتظره.

وهذا الانتظار الموعود قد يُفضي ببعض الكتّاب إلى السطحيّة أو الإسفاف أحيانًا ليبلّغ قراءه أيَّ شيء مكتوب، وكأنه يرى أنّ هذا حقُّهم عليه، فيخسر بمثل هذا العمل رصيدًا كبيرًا لديهم، فإذا ما صنع هذا مرةً أو مرتين عرف القراء أن معينه قد نضب فانصرفوا عنه. وهذا أيضًا ما يُفسِّر لنا انقطاع صاحبنا عن الكتابة في بعض المواعيد، فهو يَقدُر لقرائه قدرَهم، ولنفسه؛ فلا يرضى إلا أن تكون كتابته على نمطٍ واحد، ومستوًى يعرفه عنه قُرَّاؤه وينتظرونه.

ومن فوائد المقال الرقمي الذي يسمح بالتعليقات المباشرة إفشاء روح النقد ومراجعة المكتوب، وهو ما كان كاتبنا يحرص على بنائه، من خلال الرد على أكبر قدر ممكن من المعلقين، ومن خلال اختيار بعض التعليقات المفيدة فقد يبرزها، وقد يلحقها بمقالٍ له تالٍ، وقد يُفيد القارئ برابط أو تأييد أو إجابة تساؤل.

وقد لحظت أنه إن لم يعجبه التعليق أو لم يُرْضه تغاضى عنه، مرسّخًا غايةً نبيلة يدعو إليها دومًا في كتاباته: الاحترام والودّ، والبعد عن المنغصّات أو المشتّتات للذهن، فهو يمضي في سبيله التنويريّ –إن صح هذا التعبير– بالعلم والأدب.

ولعل ما كتبه مرةً في منشورٍ من غير عنوان يُجلّي لنا مذهبه في التعامل مع القارئ، إذ كتب يقول: "قبل نحو قرن من الزمن تطور فن المقال. إحدى أهم علامات المقال ألا يقول كل شيء، يترك المقال فرصة للقارئ ليشارك الكاتب، قد تكون الفرصة المطروحة غير مقصودة أو متعمدة. كاتب المقال ليس خطيبًا في المسجد ولا واعظًا في الكنيسة ليقول لك كلامًا مقدَّسًا يجب أن ينتهي بسبحان الله وتحيا مصر. روعةُ المقال في أن تخالفه الرأي، ربما عدّل الكاتب من رأيه أو غيرتَ أنت من قناعتك.. ولو بعد حين. المقال ليس بحثا أكاديميًّا يقوم على فرضية ومشكلة بحث ونتائج وخاتمة بل هوية المقال الأساسية هي الانتقال من فكرة لأخرى على غير هدى... نعم على غير هدى! المقالات كائنات حية من حروف وكلمات، تشبه العصر الذي تكتب فيه، وتحمل معها كل علامات الحرية أو اللاحرية"(١).

وإنّ من أكبر أسباب نجاح مقالات كاتبنا جماهيريًّا هو ما يبذله فيها من الجهد البحثيّ والأكاديمي، النظريّ والميدانيّ، فهو لا يكتب فيما يكتب عفو الخاطر في معظم الأمر، بل يكتب من خبرة علميّة، أو نتاج رحلة بحثية ميدانية، أو رحلة بحثية في ثنايا الكتب، وكثيرًا ما كانت هذه الكتب مصادر لم يطَّلع عليها القارئ؛ إما لقلة شهرتها بسبب التخصص، أو لقلة معرفة الناس

(١) في منشورٍ وليس مقالًا كتبه في صفحته من غير عنوان في: ١١ يوليو ٢٠٢١.

بأصحابها، أو لأنها مصادر قد كتبت بلغات أجنبية، وصاحبنا مترجمٌ بارز عن الروسية والإنجليزية.

إذن فكتاباته تتمتع بالحيوية والاختلاف والتجديد، وتمتاز بالصدمات العلمية اللذيذة المحبَّبة إلى قرّاء مواقع التواصل الاجتماعي، أولئك القراء الذين ملُّوا الوعظ واللغة الخطابية، تلك اللغة التي يصادفونها في صفحات شتى لدى كتّاب لم يُفرّقوا بعد ما بين الكتاب الرقمية والكتابة على صفحات الكتب، وشتّان؛ إذ قارئ هذه مختلف الخصائص والبناء عن قارئ هذه، وهذا ما أدركه الدكتور عاطف معتمد؛ فلبّى للقارئ الحديث الذي يمسك بهاتفه الصغير رغبته، رغبتَه في القراءة اللذيذة الممتعة المطعّمة ببعض المعلومات السريعة. ولم يتخذ الدكتور عاطف من البخل سبيلًا، فصار يكتب خلاصات كبرى تُستنتج بعد لأيٍ في بحوث تستهلك صفحات طويلة في مجلّات النشر المحكَّمة، لم يبخل ببثِّ علومه ونتائجه البحثية في طيّات رحلاته الكتابيّة، أو في خلاصات مغامراته وتقصِّياته الجغرافية[١]. وهذا سلوكٍ حميد ينبغي إثباته والوقوف عليه، وهو ما يحدونا إلى أن نزعم صدقه في المنفعة العامة، والتثقيف الجمعيّ، وهي مَهمّة كبرى من مهامّ أستاذ الجامعة فطِن لها الدكتور الجغرافيُّ الأديب.

إن الكتابة فعلٌ شاقٌّ حتى لو بدا يسيرًا، أو أراد له صاحبُه أن يبدو كذلك، وهذا جزءٌ من فَنِّية الكتابة، أن تُعرض المعلومات والأفكار بسلاسة وكأنها بنت أفكار صاحبها أو مستقرّة في عقله وضميره، بينا هو قد يُحضّر لها ويُجهّزها الساعات الطوال.

---

(١) انظر مثلًا نشره لخريطة قنا النادرة –على حد وصفه– التي رسمها الإنجليز سنة ١٩٥٢م (قنا...افتراق الطرق وتلاقيها (٢) ٢٦ يناير ٢٠٢١م). وانظر مثلًا آخر تفسيره لمعنى "جبل ضوي" من خلال التوقعات الجيولوجية الممكنة ثم كتابات بعض أهل المكان (١٩ إبريل ٢٠٢١ ضوي!).

وكان كاتبنُا حريصًا على عدم إملال قرّائه، بل إنه قد يمتنع عن الكتابة بعض الوقت–كما أسلفنا– إن استشعر تسرُّب التعب أو الملالة إليهم، وفي هذا المعنى كتب مرَّةً في خاتمة مقالٍ له: "ولأنني أثقلت عليكم في الأيام الماضية فلعلي أغيب يوما أو بعض يوم"(١). هذا النزوع إلى التخفيف، أو كراهة الإثقال، طريقةٌ تعليمية ناجحة دائمًا في إشعار القارئ بحرص الكاتب عليه، وإحساسه بمعاناته.

وثَمَّ سببٌ آخر من أسباب إقبال القراء على مقالات عاطف معتمد هو تلك الذاتية المحلّقة على تخوم مقالاته، وهذا الشعور الهائل الذي يُضفيه عليها من أولها إلى آخرها، ولكنه شعورٌ منضبط بالحدود الثقافية اللائقة، وغير ساقط في تيه الخطابيّة والإنشاء، وتلك الحرارة الصادقة في الإيمان بما يكتب والحب له حتى لو كان المؤمَنُ به والمحَبُّ موضوعًا علميًّا تامَّ العِلميّة، وذلك ما أدهش قُرَّاءه حين يقرأون له، أنهم لا يدرون أعلمًا يقرأون أم أدبا، وذلك هو (الصدق الفنّي) الذي يتوخّاه الكاتبُ فيما يكتب.

ومع هذا لا يَصْرُخ كاتبنا بهذه العاطفيّة التي تعتمل في نفسه تجاه ما يكتب أو تجاه قارئه، إنه لا يقع في هذا الفخّ الكتابيّ: فخ المباشرة، بل يبدو هادئًا فيما يطرح، وإن كنّا نستشعر حماسةً صادقةً من وراء السطور، وهو ما يشير إليه بعض النقاد بقوله: شرطُ المقالة أن تكون هادئةَ النَّفَس، معتدلةَ الكلمات، تجري رهوًا كالنهر لا انصبابًا كالسيل، حتى لو كان صاحبها مع ذلك يغلي حرقةً أو يتقطَّع حماسةً وغضبًا، "فإنْ تضرَّمت في نفس الأديب ثورةٌ كاسحةٌ جامحةٌ، فلا يُجيز له نَقَدَةُ الأدب أن يتخذ المقالة متنفَّسًا لثورته، وليسلك –إن أراد– سبيله إلى المنابر يلقي ثورته في موعظة، لأنه تُحتمل من الواعظ أعنف ألوان التقريع،

(١) أسوان...الشلال x الخزان! ١٦ نوفمبر ٢٠٢١.

أو ليلتمس سبيلًا إلى القصيدة –إن كان شاعرًا– لأن القصائد لا تتنافر بطبعها مع الحماس المشتعل"[١].

لقد كان عاطف معتمد لقرَّائه –كما كان يدعو زكي نجيب محمود–: "محدِّثًا لا معلِّمًا، بحيث يجد القارئ نفسه إلى جانب صديقٍ يُسامره، لا أمام معلّمٍ يُعنِّفه"، وكان لزملائه من قرّائه زميلًا مخلصًا يُحدّثهم عن تجاربه ووجهة نظره، لا يقف منهم "موقف الواعظ فوق المنبر يميل صلفًا وتيهًا بورعه وتقواه، أو موقف المؤدِّب يصطنع الوقار حين يصبُّ في أذن سامعه الحكمة صبًّا ثقيلًا"[٢].

فَهْمُ عاطف معتمد لفلسفة كتابة المقالة بهذه الطريقة التبادليّة، والتشاركيَّة؛ في كونها أقرب إلى أن تكون حديثًا مع القارئ لا بيانًا يُتلى عليه، حداه إلى أن يردّ باستفاضة على تعليقات قرائه مما لا نراه عند طائفةٍ من المشاهير الذين ينشرون في الفيسبوك، وهذا يستنزف منه وقتًا يُضاهي وقت كتابة المقالة وتحريرها أو يجوز. إن غاية كتابة المقالة ليست غايةً إبلاغيَّةً بمقدار ما هي غاية إثاريّة لها ما بعدها، إنها تثير في القارئ ضميره وعقله، وتُلقي حجرًا فيما يظن الكاتب أنه الماء الراكد في نفوس قرائه، لا يكتب الكاتب غالبًا ما يراه مستقرًّا ومعروفًا في نفس قارئه، بل ما ينبغي أن يكون، أو ما يصبو إليه الكاتب أن يكون؛ وإلا فما الحكمة من الكتابة! ما الحكمة منها إن كانت تَكرارًا أو اقتباسًا أجوف أو استعارة، وهذا ما يتخذه كثيرٌ من الكتّاب في كتاباتهم، فلا يكاد يَلتفت إلى ما يكتبونه أحد. ومثل هؤلاء الكتاب ينعي عليهم الدكتور زكي نجيب محمود فيقول: "لا تعجبوا يا قادة الأدب المصري ألا يقرأكم إلا قلة من طبقة القارئين؛

(١) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ص٩.

(٢) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ص١٠.

لأنكم تُصـرُّون علـى أن يقف الكاتـب منكم إزاء قارئـه موقف المعلِّم لا الزميل، موقف الكاتب لا المحدِّث، موقف المؤدِّب لا الصديق"[١].

لقد أمسى الفيسبوك مجلة العصر الحديث التي ينشر فيها الناس، ولكنها مجلة غير خاضعة لرئيس التحرير أو هيئة المحكّمين، وإنما هي خاضعة لمحكّم واحد هو جمهور القرّاء فحسب، ويا له من جمهور صعب الترويض! ومع ذلك فهو جمهورٌ يستطيع تمييز ما يريده غالبًا من أنواع الكتابات. ومع انتشار التعليم بأنواعه، وسهولة القراءة التي أتت إلى الناس في كل مكان بفضل الأجهزة الحديثة؛ زاد عدد القرّاء، واكتسب الكتّاب طوائف جديدة من الجماهير كانت لا تقرأ من قبل، أو كانت تقرأ في مجال اختصاصها فحسب، وتلك مزيةٌ أخرى لهذه الوسائل الحديثة تمتاز بها عن المجلات القديمة المتخصصة والصحف التي كان يذهب إليها من يحب اللونَ الذي كُتبت فيه، ولا يكاد يقربها أحدٌ سواهم.

ومما ينبغي الإشارة إليه في ختام هذا البحث أنَّ تأثير عاطف معتمد في مقالاته لم يعد مقتصرًا على عالمه الأزرق فقط، بل رأينا أثره في خارج هذا المجال الإلكتروني، حين نقرأ مقالةً صحفيَّة بعنوان: (وأحببت الجغرافيا.. من نافذة عاطف معتمد!)، تقول صاحبته: "قضيت سنوات دراستي حتى المرحلة الثانوية أكره مادة الجغرافيا، وكل ما يتعلق بها أو يقترب منها... حتى قادتني الصدفة لدخول صفحة على فيسبوك، كنت لجهلي وسوء حظي أجهل صاحبها حتى ذلك الحين، واتضح أنه د. عاطف معتمد... ورغم أنني لم أتشرف بمعرفته شخصيًّا، إلا أنني منذ قرأت له لأول مرة، صرت من أشد متابعينه [كذا]، وأصبحت شغوفة بمتابعة ما يكتبه من معلومات جغرافية وجيولوجية، وأستمتع بحديثه عن تنوع التضاريس وطبيعة الصخور وغيرها من معلومات كانت تبدو

(١) جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود ص١١.

لي معقدة وكئيبة، قبل أن يبسطها ويغلفها بأسلوبه الأدبي الممتع، وبشغفه الذى ينتقل للمتلقي من خلال حديثه وكتاباته، ليثبت أن الإبداع يمكن أن يكون في كل المجالات..."[١].

خَاتمة:

إنَّ إحدى أهم النتائج التي أراد هذا البحث إثباتها هي أنَّ النثر العربي يتسع ليشمل ضروبًا من الكتابة التخصّصية، كالجغرافيا مثلًا، وقد نجح الكاتب الدكتور عاطف معتمد الذي أوليناه بالدرس؛ في إنتاج نصٍّ أدبيٍّ نثريٍّ في قالَبه المقالي، بما لا نملك معه إلا الحُكم بأدبيّته، بل بامتياز تلك الأدبيّة عن غيرها حيث صَبَغها بلونٍ جغرافيّ على غير مثالٍ سابق، وهو ما يجعل هذا النوع من الكتابة فريدًا مستحقًّا الإبراز والتنويه به بمثل هذه الدراسة.

وفي هذا السياق ندعو إلى اكتشاف غيره من الأدباء في الفنون والعلوم الأخرى التي يُخرج أصحابُها كتاباتهم على الصورة الأدبيّة، وألّا نقتصر في دراستنا على (الأدباء) وحدهم، فالأدب مفهومٌ واسعٌ وحيٌّ ونابض. ولا شك أنّ إخراج هذه الكتابات ونحوها من حديقة الأدب، أو إهمالَها وعدم الالتفات إليها بالدرس والكشف قاضٍ على جانب كبيرٍ ومهمٍّ –ولا يُستغنى عنه– من أدبنا العربيّ، ومُفْضٍ إلى الجمود على أنواعٍ بعينها من القوالب المعتادة، وهذا كله معاكس لحركة النموّ التي يحتاج إليها كل أدبٍ حيٍّ، وكل لغةٍ منتعشة، ولغتُنا العربية أحقّ بذلك وأجدرُ.

نستطيع بدراستنا هذه إثبات فرعٍ جديد من فروع المقالة العربيّة هو الفرع الجغرافيّ، وكانت الدراسة النمطيّة تحصرها في أنواعٍ معروفة: سياسية،

(١) منشور في موقع البوابة نيوز، للدكتورة رشا يحيى، الأربعاء ١٣ يناير ٢٠٢١:
https://www.albawabhnews.com/4238863

واجتماعيّة... وهلمّ جرًّا. استطاع عاطف معتمد أن يجعل من كتابته فرعًا باسقًا في شجرة المقالة العربية النامية في حديقة النثر، وهو فرعٌ مخضوضرٌ ناهضٌ حسَنٌ، وفيه من الثمار ما يُجتنى، لا نقول هذا إنشاءً بل على سبيل الحقيقة التي نلمس أطرافها بما تُصدِّقه الدراسة في هذا البحث.

حقّق عاطف معتمد مبتغاه بمخاطبة العقل والنفس معًا، فأغنى العقل بغَنائه الفكري، وأمتع النفس بما صبّه في مقالته من بهيج القول وبليغه، وإنما نقصد بالبلاغة هنا ما نعرفه من الأصول الكتابية الفنّيّة، يُضاف إليها ما استجدّ من وسائل حديثة اقتضتها ضرورة العصر المتغيّرة، كالنصّ الموازي الذي أدخله الكاتب في مقالاته ويشمل الصور الفوتوغرافية، والخرائط، والمزايا التفاعليّة الجمهوريّة الجديدة التي أغنت الكتابة بها وسائلُ التواصل الاجتماعي، مثل: التعليقات، والمشاركات، وإبداء الشعور تجاه الكتابة من إعجاب أو تأييد أو غضب أو حب، وهو ما وقفنا عليه في هذا البحث.

لم يكتب عاطف معتمد مقالةً مختلفة عن المقالة التقليدية في روحها ومضمونها، بل (حدَّثها) –إن شئنا التعبير– بهذه الحيوية التي تتيحها وسيلة النشر (الفيسبوك)، وبفهمه لآليّات تلك الوسيلة.

استطعنا أن نقف على الجغرافيا المصريَّة المتجذرة والمتوسّعة في مضامين تلك المقالات، فاستقريناها وصنّفناها على التضاريس المصرية، وهو ما نزعم أنها تشكل شجرةً متماسكةً في خيال الكاتب تُمثّل القطر المصري، تنبع من جنوبه مع مسار النيل، وتبسق فروعها بسيرورته إلى محافظات الصعيد الممتد، حتى تنتهي إلى دلتا مصر الخصيبة، فتنحني يمينًا حيث سيناء وساحل البحر الأحمر والصحراء الشرقية، وتنحني شِمالًا لتمرّ بالإسكندرية والساحل الشمالي حتى تتدلى في سيوة وما يحيط بها من صحراء مصر الغربية.

لقد عاش الكاتب بكيانه تلك التضاريس فنقلها بكلماته حيّةً نابضةً إلى قُرّائه، كأنما يرونها بأعينهم، ولم يكتف بهذا بل أضفى إليها من شعوره الصادق

وخبرته العلمية بمكنوناتها، ما أكسب قارئه تلك الخبرة الفكريّة الصادقة، وهو ما يفسّر (عَجَب) كثيرٍ من قرائه من تلك المقالات، مع أنها تحمل الطابع الجغرافي، يعجبون كيف يطربون لها.

اتخذ الكاتب لنشر مضامينه ما تقضيه المقالة من الوسائل الشكلية، التي أهمها رشاقة اللغة، والحواريّة في الطرح، والخفة السرديّة، والخبرة الصحفية، وعدم الاستقصاء المعلوماتي، والالتزام بحدود في الحجم لا يحيد عنها، مستعينًا بالتشويق، والاستطراد والتنويع في العرض، بما أظهرْنا القارئ عليه في هذا البحث.

لقد تمكّن عاطف معتمد من إخراج الوسيلة التواصلية من الغرض الاجتماعي البحت الذي تغلب عليه النمطيَّة والمجاملة، إلى جانب إمتاعيّ مُجْدٍ من خلال مقالته الأدبية العلميّة، أو العلميّة الأدبيّة، قل ما شئت، ولكننا لا نستطيعُ –ولا يجوز لنا– أن ننزع منها صفة الأدبيَّة.

ملحق:
مقالاتٌ مُختارة[١]

١٧ إبريل ٢٠٢١

شابت على أرضه الليالي!

بينما أقلب في خريطة الصحراء الشرقية أمس توقفت عند جبل "الشايب" أحد أعلى جبال مصر. يبلغ ارتفاع هذا الجبل ٢١٨٤ مترا ويقع فيما بين الغردقة شرقا وقنا غربا .

قراءة اسم "الشايب" تحمل عندي ذكرى أستاذين جليلين راحلين. الأول هو محمد صبري محسوب أستاذنا في جامعة القاهرة الذي كان يجمع بين العمق العلمي وخفة الروح فذكر لنا ونحن بعد في أولى سنوات الدراسة الجامعية أن الاسم الكامل للجبل هو "شايب البنات" وأن الروايات تذهب إلى أن شيخا كبيرا من قبائل الصحراء كان يعيش في هذه المنطقة مع بناته فعرف الجبل باسمه .

أما الأستاذ الثاني فكان شاعرا أديبا جمع إلى جانب عمقه الجغرافي رسالة ثقافية إنسانية وهو أحمد عبد العال (الأستاذ بجامعة الفيوم) الذي كتب مقالا في الأهرام قبل ثلاثة عقود يربط فيه بين الجغرافيا والأغاني والأشعار.

وقد وقع اختياره في هذا المقال على رائعة محمود حسن إسماعيل (١٩١٠-١٩٧٧) التي شدى بها عبد الوهاب في "النهر الخالد."

في واحد من أبيات هذه القصيدة يقول الشاعر واصفا نهر النيل "شابت على أرضه الليالي.. وضيعت عمرها الجبال "

(١) أثبتنا المقالات بحروفها وطريقة كتابتها حتى نتصورها في أصلها، مع أننا أدخلنا عليها شيئًا من التنسيق الذي يقتضيه النشر.

والحقيقة أن الشاعر وقف على حقيقة جيولوجية أكيدة وهي قدم أعمار الصخور التي تحيط بنهر النيل في رحلته الطويلة التي اخترق خلالها أقدم صخور ليس فقط في حوض النيل بل أقدم صخور في القشرة الأرضية.

صحيح أن جبل الشايب لا يقدم اليوم أية مياه لنهر النيل منذ أن حل الجفاف على بلادنا قبل آلاف السنين وأصبح النهر رهينا لأمطار الحبشة، إلا أن الأصل الجيولوجي والمناخ القديم لم يكن على هذا النحو. فقد كان الشايب ومعه قمم جبلية عديدة تفيض مياها إلى وادي قنا بكميات مياه ضخمة، وكان وادي قنا واديا سابقا على نهر النيل يتدفق في الصحراء الشرقية واصلا إلى ما نسميه اليوم الصحراء الغربية.

وحين اكتمل نمو النيل في النوبة واخترق أرض مصر لم يكن أمامه إلا أن "يأسر" وادي قنا ويضم مياهه إليه ويقسم أرضنا إلى شطرين غير متساويين شرقي وغربي نسميهما اليوم "الصحراء الشرقية" و"الصحراء الغربية."

في أول تعليق تجدون قصيدة محمود حسن إسماعيل وبها أيضا يتألق عبد الوهاب .

القصيدة رحلة لنهر النيل في كل من المكان بين الجبال والصحاري وفي الزمان والليالي، وبين المكان والزمان الناس من حول النيل بين سكرة السكارى وفرحة العذارى.

***

١٢ مارس ٢٠٢١

بين فوكة وحمَّام الأميرات!

كل ما تم نقشه في الصغر يطاردنا بقية العمر. في كُتّاب القرية ردد شيخي "اعلم يا ولدي أن رأس الحكمة مخافة الله". هل أفلحت نصيحته معي؟ كم من ذنوب ارتكبتُ ولم يكن من أثر لنصيحته سوى وخز الإبر في جنب ضميري.

كانت أولى زياراتي إلى منطقة "رأس الحكمة" في شمال الصحراء الغربية عقب تخرجي من الجامعة. تلفتُ هنا أبحث عن مخافة الله في كل ما حولي وكأني سأجدها بين الصخور، فتشت عنها عند أعشاب البحر التي طردتها بإهانة أمواج مغرورة، غرست يدي مرارا أتلمسها في رمال تلال ناصعة البياض كأنها ثلوج فرت إلينا من بلاد الشمال، أدرت رأسي مرارا بين أغصان أشجار التين العتيقة.

ما هي تلك المصادفة التي تجمع المكان باسمه التاريخي؟. كيف حلت "رأس الحكمة" محل اسمها في العصر المسيحي "رأس الكنايس". أي جغرافي عبقري نصح الملوك والحكام عبر آلاف السنين ليتخذوا هذا المكان منتجعا لهم ولنسائهم.

توقفت أمام "حمَّام الأميرات" عند أبعد نقطة في البحر من "رأس الحكمة". مكان يستحق اسمه عن جدارة: ماء رقراق، بحر أزرق مبهج، رمال حانية على أقدام الأميرات والملكات والوصيفات.. أكاد أسمع صدى صوتهن ما زال يجلجل بين الصخور والجروف وشعب البحر القريب .

لم انتبه إلى أننا تركنا رأس الحكمة، ما زالت الأميرات تداعبن خيالي في موج البحر. ها قد وصلنا قرية "فوكة."

"فوكة" واحدة من قرى بدوية عديدة في رأس الحكمة، مررت عليها في سنوات سابقة ولم تنجح في أن تلفت انتباهي. هذه المرة انشقت الأرض أمام حافلتنا فامتشق جسر أنشئ حديثا فوق السكة الحديد مرتفعا عن الأرض عشرين مترا فأعطانا مرورا حرا رأيت معه المكان من علٍ كما لم أشاهد من قبل. انطلقت من فمي كلمة "الله" فانتبه كل من معي .

راسما على وجهه ابتسامة سخرية رد سائقي البدوي: "يعجبك الجسر؟! يؤلمني أنا جدا.. نمر هنا فوق دماء العشرات من أبناء بلدتنا، هذا الجسر أقيم

بعد فوات الأوان، هنا اصطدم القطار بعربات النقل وسيارات المسافرين.. وفقدت بينهم صديق عمري ورفيق طفولتي وصباي."

ثلاثة أيام من اللف والدوران في رأس الحكمة، توقفت طلبا للراحة في مرسى مطروح، أعجبتني شاشة عملاقة أقيمت وسط المدينة قرب البحر، لا تتوقف الشاشة عن عرض نتائج الانتخابات بعد العرس الانتخابي. في هذا المكان قبل ثلاثين سنة كانت الأهرام والجمهورية تتحدث عن نفس نسب تصويت ونتائج مشابهة لديموقراطية على المقاس المصري: أمسكُ رأسي بيدي!

أصل أخيرا إلى غرفتي في مطروح، يأتيني من مسجد قريب صوت القرآن استعدادا لرفع آذان المغرب، الشمس تنزل إلى أفق الغروب ساخرة من كل ما حولي.. القرآن يختم بثه من مكبر الصوت فيكون آخر ما أسمع "فاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ."

أندس في فراشي، تنتظرني من ليلة أمس رواية مترجمة ببلاغة عن الفرنسية عنوانها يقول "كيف أصبحتُ غبيا ؟."

***

١٢ فبراير ٢٠٢١

الجزيرة المحرمة تعود للشعب!

أخذت الصورة المرفقة من البر الغربي لأسوان من التل الشهير المعروف باسم "أبو الهوا". لا تصح زيارتك لأسوان إلا بصعود هذا التل ورؤية أسوان من هذه الزاوية النادرة التي تكشف لك معالم النيل الأسطوري. حين عدت لحاسوبي ليلا وضعت أسماء الأماكن التي تجدها في الصورة أخذا في الاعتبار أننا نقف هنا نولي وجهنا شطر الجنوب: إلى بلاد النوبة ومن خلفها وطننا الثاني في السودان .

فـي الصـورة المرفقـة جزيرتـان شـهيرتان، الكبيـرة منهـا تسـمى "إليفنتـين" أو "جزيرة أسوان" والتـي يسكنها البسطاء في الطرف الجنوبي ويحتلها فندق معولم في الطرف الشمالي.

أما الجزيرة الأصغر وهي قصتنا في المقال الحالي فتسمى جزيرة النباتات وسأسميها هنا تجاوزا "الجزيرة المحرمة." هذه الجزيرة مؤلفة من الجرانيت مثلها مثل بقية جزر نيل أسوان التي تنتشر هنا بالعشرات فتفرق النهر وتشعب مجراه حتى أنه يكاد يكون مثالا مدرسيا للنهر المضفر الذي يشبهه الجغرافيون بفتاة ذات شعر حريري غزير وزعته على ضفائر أو جدائل بدلا من تركه منسابا منسدلا في نهر واحد.

في هذا النهر المضفر تتلقى الجزر الجرانيتية كلا من طمي النيل ورمل الصحراء. لابد أنك رأيت في الصورة هنا رمال الصحراء الذهبية اللون التي جاءت من عمق بحور الرمال قرب ليبيا تحاول أن تردم النيل.

هذه الرمال لم تيأس بعد ولولا تدفق النيل من الجنوب إلى الشمال بشكل منتظم لتمكنت من سد المجرى وغلق النيل .

هذه الحقيقة الجغرافية الطبيعية هي التي صنعت واحدة من أساطير مصر القديمة التي يقول بعضها إن الأخ الشرير "سِت "حين حاول انتزاع الحكم من أخيه الطيب "أوزير" أراد أن يفسد له ملك مصر فاستحال إلى قوة الصحراء العاتية وصار إلها معبودا للرياح واتخذ من بلايين الرمال جنودا وأمرهم أن يردموا النيل ويوقفوا تدفق النهر كي تتعطل قوة أوزير الأسطورية التي يستمدها من تقديمه الأرض الخضراء لشعب مصر .

وفقا للأسطورة ينجح سِت (الجد الأول لكل قابيل) في قتل أخيه الطيب "أوزير" (الجد الأول لكل هابيل) لكن ابنه "حور" يستطيع إنقاذ الموقف ويثأر لأبيه ويتمكن من إيقاف رمال الصحراء الذهبية اللون من غزو النهر هنا في جنوب أرضنا في أسوان، وإن كانت ما تزال تقف بالمرصاد كما نرى.

بين رمال الصحراء وجزيرة أسوان تقع الجزيرة المحرمة التي عرفنا اسمها أول مرة على خريطة من زمن الاحتلال الإنجليزي. تاريخ هذه الخريطة يعود إلى ١٢٠سنة مضت وعليها نجد الجزيرة تحمل اسم "جزيرة السردار."

السردار كلمة فارسية على ما يبدو تعني الحاكم العام أو رئيس الأركان ويبدو أنها الصيغة المحرفة في مسمى السلطان العثماني "الصدر" الأعظم.

لم يكتف رسامو الخرائط في العهد الإنجليزي بأن يكتبوا على هذه الجزيرة اسم "جزيرة السردار" بل أضافوا إليها اسما بعينه للسرداد وهو "كيتشينر" الذي كان يقود في نهاية القرن التاسع عشر الحملة الإنجليزية للقضاء على الثورة المهدية التي كافحت لوقف الاحتلال البريطاني على أرضها حين لعبت بريطانيا بذكاء ماكر على توريط الجيش المصري تحت عنوان الدفاع عن "السودان المصري" كي يبقى مصريا.

اتخذ كيتشينر من الجزيرة وموقعها العبقري مقرا لقيادة الحرب في السودان واستغل وقت الراحة والتأمل في ممارسة هوايته بجمع النادر والفريد من الأشجار والنباتات ليزرعها في الجزيرة وأتى بأشجار ونباتات من عمق آسيا ومجاهل إفريقيا.

في نهاية العهد الملكي في أربعينيات القرن العشرين ستغير المساحة المصرية التي أسسها الإنجليز من اسم الجزيرة ليصبح "جزيرة المَلِك" نسبة على ما يبدو إلى الملك فؤاد الأول الذي أصبح الاسم الأشهر في السياسة المصرية بعد تراجع دول الإنجليز الشكلي .

بعد قيام الجمهورية كان من المنطقي استثمار الثروة النباتية التي جمعها كيتشينر والتي جعلت من الجزيرة متحفا نادرا للنباتات في أن تصبح جزيرة للشعب متاحة للزيارة والتجول والراحة لكل من يأتي أسوان.

في كل مرة أزور فيها جزيرة النباتات ينتابني شعور فريد يعود بي إلى سن التلمذة في مدرسة إعدادية حين كانت مدرستنا في الأصل قصرا لأحد الأمراء.

كنت أذهب مبكرا قبل بدء الحصص أو أتأخر قليلا بعد انصراف التلاميذ وأدخل في الفصول التي هي في الأصل غرف أميرية وأقف طويلا في الشرفات أنظر إلى الحديقة الغناء التي كان يطل منها أصحاب ذلك القصر، متخيلا كيف كانت حياتهم وأين هم الآن؟

استمرت هذه العادة معي بمرور الزمن حتى أنني في كل بلد أزورها في الخارج وأدخل قصرا تحول من الملكية إلى الجمهورية فصار متحفا أو مكتبة عامة أقف طويلا على السلالم الرخامية أتطلع في الأفق المفتوح مستدعيا تاريخ الغابرين.

خلال تجوالك في جزيرة النباتات لا توجد إشارة إلى كل السطور التي ذكرتها في هذا المقال، أغلب الناس هنا يأتون للتصوير أو المرح أو "فسحة في جنينة" وقليل يعرف تاريخ المكان.

ليس من العيب أن نقول للناس إن هذه الجزيرة كانت مقر محتل إنجليزي ثم صارت جزيرة خاصة بالملك قبل أن تصبح جزيرة للشعب.

الأمم القوية لا تخشى ماضيها بل يمكنها أن تحول مواطن ضعفها إلى عناصر قوة، وحين يحدث ذلك سينشط خيال الزوار وتنتعش عقولهم وتذهب بهم الصور والأخيلة إلى زمن مضى وشعوب تغيرت.

حين يعرف الزوار كل ذلك سيقدرون المكان الذي يمشون فيه فلا يعتبرونه مجرد "فسحة" بل سيعرفون أنه موقع فريد لأساطير قديمة وتاريخ عميق فيلمسون كل مكان باعتباره موقعا مقدسا نابضا بالحياة.. ماضيها وحاضرها.

المصَادر والمَراجع

أولًا: مصادر المقالات:

١. صفحة الدكتور عاطف معتمد في الفيسبوك:
https://www.facebook.com/atef.moatamed

ثانيًا: الأخرى:

٢. الأدب والتكنولوجيا: تأملات في النص التفاعلي والتفاعل الرقمي، لأحمد زهير رحاحلة (حوليات الأدب والعلوم الاجتماعية، حولية ٣٨، رسالة ٤٩٠، ديسمبر ٢٠١٧، ص ٩-١٢٢).
٣. أزمة المصطلح في النقد الروائي العربي، مجلة الفكر العربي، بيروت، السنة ١٧، العدد ٨٣، سنة ١٩٩٦، ص ٨٤).
٤. الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت).
٥. تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، محمّد مرتضى الحسيني (تحقيق عبد الكريم العزباوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط١/٢٠٠١م).
٦. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، لإغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، دت).
٧. جنة العبيط، للدكتور زكي نجيب محمود (دار الشروق، القاهرة، ط٢/١٩٨٢م).
٨. الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها، للدكتور محمد بنيس (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١/١٩٨٩م).
٩. العنوان في الأدب العربي: النشأة والتطور، للدكتور محمد عويس (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١/١٩٨٨م).
١٠.فن المقالة، للدكتور محمد يوسف نجم (دار صادر، بيروت، ط١/١٩٩٦م).

١١.فـي التعـالي النصـي والمتعاليـات النصـية، لمحمـد الهـادي المطـوي (المجلـة العربية للثقافة، تونس، السنة ١٦، العدد ١٩٩٧/٣٢، ص ١٩٦).
١٢.كارل بروكلمان بين التراث العربي وعلم اللغة المقارن، للدكتور محمود فهمي حجازي (مجلة الكتاب العربي، العدد ٤٥، القاهرة ١ أبريل ١٩٦٩م).
١٣.لماذا النص الموازي؟ للدكتور جميل حمداوي، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم:
https://cutt.us/YuqBe
١٤.محاضـرات عـن فـن المقالـة الأدبيـة، للـدكتور محمـد عـوض محمـد (معهـد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٩م).
١٥.مختـارات مـن النثـر العربـي، للـدكتورة وداد القاضـي (المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر، بيروت، ط١/١٤٠١هـ).
١٦.المدخل في فن التحرير الصحفي، للدكتور عبد اللطيف حمزة (الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط٥/٢٠٠٢م).
١٧.معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، للدكتور سعيد علوش (دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١/١٤٠٥هـ).
١٨.معجـم المصـطلحات الأدبيـة، مـادة: "المقـال، المقالـة"، لإبـراهيم فتحـي (التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، ١٩٨٦م).
١٩.معجم مصطلحات المخطوط العربي (معجم كوديكولوجي)، للدكتور أحمد شـوقي بنبـين والـدكتور مصـطفى طـوبي (الخزانـة الحسـنية بالربـاط، ط٣/٢٠٠٥م).
٢٠.المقال الأدبي، لأحمد السماوي (مسكيلياني للنشر، ضمن سلسلة ألف، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، دت).
٢١.مقال: "وأحببت الجغرافيا.. من نافذة عاطف معتمد"، للدكتورة رشا يحيى، موقع البوابة نيوز، الأربعاء ١٣ يناير ٢٠٢١:
https://www.albawabhnews.com/4238863

٢٢.الموازي وخطاب الميتالغة في ملحمة السراسوة، للدكتور محروس القللي (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، ٢٠١٩م، العدد ٣١، الجزء ٢).

٢٣.نهر النيل، للدكتور محمد عوض (تحرير وتقديم عاطف معتمد، دار البشير للثقافة، القاهرة ٢٠٢٢م).

24.Genette, Gérard (1997). Paratexts: thresholds of interpretation. Cambridge: The University of Cambridge.